رواية

Dostoyevsky

دستويفسكي

النحس

ترجمة : إسماعيل البنهاوي

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق (متميزون) انضم الى الجروب

انضم الى القناة

النحس

رواية

الكاتب: ديستويفسكي
ترجمة: إسماعيل البنهاوي

عن هذا الكتاب..

إيفان إيليتش شخص إصلاحي برتبه جنرال كان يحاول أن يبث أفكاره الإصلاحية في نفس زملاؤه خلال اجتماعه بهم للاحتفال في منزل أحدهم ولكنهم انفضوا من حوله.
وفي طريق عودته إلى المنزل اجتذبت أنظاره بعض الأنوار المنبعثة من كوخ بسيط، وأتضح له أنه عرس أحد مرؤوسيه ولاح له أن تلك فرصة يجب اغتنامها لبث مبادئه وممارسة مثله... ودفعه الحماس إلى ارتياد المكان- غير مدعو- فكانت الوقائع الأسيفة التي ترويها القصة، وكان سوء الحظ الذي لازم الجميع في تلك الليلة البائسة، وكان التورط والحرج الذى وقع فيهما صاحب العرس وضيوفه والوافد الكبير إيفان إيليتش برالنسكي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

موضوع القصة..

محاولة إصلاح خُلُقي أبرز المؤلف لها «شخصية» إيفان إيليتش برالنسكي، شخصية متحمسة للإصلاح الاجتماعي الخلقي غداة قيام الثورة الروسية.
بدأت القصة بحوار دار بين ثلاثة من كبار الشخصيات هم السيد «ستيبان نيكيفوروفتش» والسيد «سيميون إيفانتش برالنسكي» وبطل القصة وهو الشخصية المتحمسة للإصلاح الاجتماعي الخلقي غداة قيام الثورة الروسية السيد «إيفان إيليتش برالنسكي»..
اجتمع ثلاثتهم في بيت السيد «نيكيفوروفتش» بدعوة منه بمناسبة شرائه منزلًا جديدًا والاحتفال بعيد ميلاده.
حاول إيفان إيليتش برالنسكي، وكان برتبة جنرال، أن يبث أفكاره الإصلاحية في نفس زميليه, ولكن عبثًا ما كان يحاول، وانفض جمعهم في تلك الليلة انفضاضًا يائسًا، حيث كان كل من السيدين «ستيبان نيكيفوروفتش» المضيف و»سيميون إيفانتش شيبولنكو» على يقين من فشل محاولات الإصلاح. ولكن السيد إيفان إيليتش برالنسكي كان شديد الحماس لأفكاره الإصلاحية, لم يعر كلام زميليه أهمية, وانصرف في تلك الليلة إلى داره يعمر قلبه الإيمان بالإنسانية والمثل العليا الأخلاقية والوجود الكريم.
وفي الطريق اجتذبت أنظاره بعض الأنوار المنبعثة من كوخ بسيط, وأسماعه بعض الأصوات الموسيقية؛ إذ كان ثمة عرس. ولاح للسيد «إيفان» أن تلك كانت فرصة يجب اغتنامها لبث مبادئه وممارسة مُثله.. فدفعه الحماس إلى ارتياد المكان – غير مدعو – وشاءت الظروف أن يكون العرس لأحد مرؤوسيه السيد بسلدونيموف, وكانت الوقائع البائسة التي ترويها القصة, وكان سوء الحظ الذي لازم الجميع في تلك الليلة المنكودة. وكان التورط والحرج الذي وقع فيهما صاحب العرس وضيوفه والوافد الكبير «إيفان إيليتش برالنسكي», وكان الخروج من الورطة والحرج.. وكان يأس إيفان وقنوطه آخر الأمر.
تمثل القصة قطاعًا من المجتمع الروسي في الفترة التي شهدت ميلاد روسيا الجديدة في حياته الاجتماعية والاقتصادية البائسة, كما تمثل أفكار نفر من دعاة الإصلاح ممن تتطلع نفوسهم إلى المصائر الحالمة والأمنيات العزيزة.
دكتور إبراهيم جمعة

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

1

وقعت هذه الحادثة التعسة في الوقت الذي بدأ فيه الميلاد الجديد لبلادنا العزيزة، واتجهت فيه أفكار كل أبنائها البُسلاء نحو مصائر حالمة وأمنيات جديدة...

في إحدى أمسيات الشتاء الثلجية الصافية، والساعة تقترب من منتصف الليل كان ثلاثة من الوجهاء يجلسون في غرفة مريحة, فاخرة الأثاث, بمنزل فخم من طابقين في جانب من مدينة بيترسبورج - منهكين في حديث رفيع ذي بال, شائق الموضوع.. كان كل من الثلاثة يحمل رتبة الجنرال - جلسوا حول مائدة صغيرة, كلٌ في كرسي مريح فخم, يشربون الشمبانيا في هدوء واسترخاء... يتحدثون والزجاجة على المائدة داخل وعاء فضي ممتلئ إلى نصفه بقطع الثلج, وقد كان هذا الاجتماع بمناسبة خاصة... كان المضيف المستشار الخاص «ستيبان نيكيفوروفتش نيكيفوف» رجلًا في الخامسة والستين من عمره يحتفل بسكنه في المنزل الجديد الذي اشتراه حديثًا، وبعيد ميلاده الذي صادف وقوعه في المناسبة، التي لم يسبق له أن احتفل بها من قبل.

لم يكن احتفالًا بالمعني الصحيح؛ إذ لم يحضر سوى ضيفان اثنان, كل منهما كان زميلًا سابقًا ومرؤوسًا للسيد «نيكيوروفتش», وكل منهما الآن مستشار دولة, هما السيد «سيميون إيفانتش شيبولنكو», و»إيفان إيليتش برالنسكي».

كان وصولهما حوالي التاسعة لتناول الشاي, ثم لم يلبثا أن جنحا إلى الشمبانيا, وكانا يعلمان أن عليهما مغادرة منزل المضيف في تمام الحادية عشرة والنصف؛ وذلك لكونه شديد الدقة في المواعيد.

بدأ يشق طريقه كموظف رقيق الحال، مُجد, أدى في هدوء أعمالًا شاقة مدة خمس وأربعين سنة, وهو على يقين تام من الرتبة التي سوف يحصل عليها, ولم يكن لديه أقل أمل في أن يحلق بجو النجوم برغم حمله لاثنتين منها بالفعل على قلابة سترته. ولقد كان بصفة خاصة غير مغرم بإبداء رأيه الشخصي في أية مسألة مهما كانت.. كان نزيهًا بدرجة كبيرة.. إذ لم يجد من الضروري في وقت ما أن يقوم بعمل غير شريف.. بعيدًا عن الأنانية، ولم يكن غبيًّا على الإطلاق, ولم يحدث أن زها بنفسه, وأشد ما كان يكرهه الفوضى والحماس؛ إذ اعتبر الحماس نوعًا من الفوضى الأخلاقية, وفي الطريق إلى نهاية عمره, انغمس في نوع من الراحة الممتعة التي يشوبها الخمول مع إيثار العزلة. كان يقوم أحيانًا بزيارة أفراد من الطبقة الراقية إذ لم يكن يحب التسلية في بيته منذ الصغر. ولكن مؤخرًا اعتراه نوع من العجز وعدم الصبر, وكثيرًا ما كان يتسلى بساعته التي فوق المدفأة, ينصت أمسيات بطولها دون انقطاع إلى دقاتها من خلف زجاجها المستدير.

كان في هيئته كامل الاحترام, نظيف اللحية, يبدو أصغر من سنه، في تمام صحته بما يوحي أنه سيعيش طويلًا, أما في سلوكه فقد كان أكثر جم الأدب مهذبًا.
كانت وظيفته مريحة للغاية, يحضر جلسات معينة ويوقع أوراقًا محدودة.
وقصارى القول أنه كان رجلًا ممتازًا, تغلبه عاطفة أو بالأحرى رغبة ملحة في أن يمتلك بيتًا خاصًا جديرًا بسيد حقيقي لا مجرد مسكن عادي... وتحققت له هذه الأمنية أخيرًا, فقد انتقى ثم اشترى بيتًا في ناحية بيترسبورج, وبرغم أنه في طرف من أطرافها، فقد كان بيتًا ذا حديقة جميلة, إلى جانب كونه أنيقًا للغاية، كان المالك الجديد «سبتيان» يرى أنه كلما كان المسكن بعيدًا كان أفضل مادام غير مغرم باستقبال الضيوف.
كانت لديه عربة لطيفة في لون الشوكولاتة, تتسع لاثنين, وسائق يُدعى «ميخي» يجرها زوج من الخيول الصغيرة القوية والجميلة, كان يستخدمها في زياراته والذهاب إلى مكتبه, وكل هذا كان ثمرة أربعين عامًا من الاقتصاد والتقتير؛ لذا كان له أن يفرح به من كل قلبه، حيث شعر – بعد شرائه ذلك البيت والانتقال إليه – برضا عظيم يغمر قلبه الهادئ, حتى أنه قام بدعوة ضيفين في يوم ميلاده.. اليوم الذي حرص حتى ذلك الوقت على إخفائه عن أقرب أصدقائه.
كان «ستيبان» ينظر نظرة خاصة إلى أحد هذين الضيفين؛ إذ إنه لم يكن يشغل سوى الطابق الأعلى من بيته, ومن ثَم يحتاج إلى مستأجر للطابق الأدنى الذي أعده على النمط نفسه، ومن هنا عولّ ستيبان كثيرًا على «سميون إيفانتش شيبولنكو» فحول الحديث إلى هذا الموضوع مرتين خلال السهرة, ولكن «سيميون» لم يجد ما يقوله في هذا الشأن.
«سيميون» بدوره رجل شق طريقه بصعوبة وبطء, كان أسود الشعر والسوالف، اتسمت تعبيرات وجهه بشيء ما من الريبة الدائمة, كان متزوجًا.. امتازت إقامته الطويلة في منزله بإثارة روح الانقباض والفزع. وفي عمله كان مؤديًّا لواجباته في ثقة تامة، على يقين تام من أنه سينال الرتبة التي يستحقها, بل الأفضل من ذلك أن ينال الرتبة التي لن يحصل عليها أبدًا. كان يشغل وظيفة ذات بال, انكب عليها بكل جهده، يرقب بعين لا تخلو من الحقد بداية طلوع الفجر للعهد الجديد, ولكن هذا لم يسبب له تخوفًا من أي نوع, لكونه واثقًا من نفسه. كان إنصاته شديدًا إلى حماسيات «إيفان إيليتش برالنسكي» حول المشكلات الجديدة, فيرقب الرجل بروح مملوءة بالسخرية.
يجب أن نلاحظ منذ الآن أنهم جميعًا كانوا واقعين بعض الشيء تحت تأثير الشراب.. ونزل «ستيبان» فدخل بالفعل في مناقشة خفيفة مع السيد «برالنسكي حول العهد الجديد.
وينبغي علينا الآن أن نقول بضع كلمات عن صاحب السعادة السيد برالنسكي، الشخصية الرئيسية في هذه القصة.

لقد أطلقوا على مستشار الدولة «إيفان إيليتش برالنسكي», لقب «صاحب السعادة» من أربع أشهر مضت, صار جنرالًا من أولئك الجنرالات الجدد.. كان لا يتجاوز الثالثة والأربعين، ويبدو أصغر من سنه, فأخذ يزهو بذلك.
كان رجلًا وسيمًا طويل القامة، فخورًا بملابسه وبالوقار المهيب الذي يضفيه عليها, يلبس طاقمًا متميزًا فوق صدره, اكتسب بعض حيل السلوك الأرستقراطية منذ صباه.. حلم كثيرًا بعروس ثرية أرستقراطية... وظل تائهًا في الأحلام برغم كونه ذكيًا... كان مؤهلًا لأن يكون خطيبًا من طراز الخطباء في البرلمان, انحدر من أسرة كريمة, كان ابنًا لجنرال, ولوعًا بالحقائق, وكان في طفولته المبكرة يُكسى المخمل والحرير ويرسل إلى مدرسة أرستقراطية, ومع أنه لم يكتسب معرفة كبيرة من تردده على المدرسة, فقد قام بأعباء وظيفته على نحو جيد للغاية, ارتقى لرتبة جنرال, واعتبره رؤساؤه رجلًا قديرًا, فكانوا يعلقون عليه آمالًا كبيرة, ولكن ستيبان نيكيفوروفتش الذي بدأ يشق طريقه تحت قيادته, بل وسار فيه حتى وصل إلى رتبة الرئاسة, لم ينظر إليه قط على اعتبار أنه ذو كفاءة خاصة, ولم يعلق ثمة آمالًا, وكان يسره مع ذلك أن إيفان إيليتش من أسرة كريمة وأن له إرثًا, عبارة عن قصر، شُيد من الحجر يديره خادم كان من قبل مِلكًا لقوم ليسوا من المرموقين, وهو – بالإضافة إلى ذلك – ذو طلعة حسنة. فكان «ستيبان» يراقبه دون أن ينتبه. أما «إيفان إيليتش» نفسه فكان يشعر أحيانًا أنه شديد الحساسية بل وسريع التأثر.
والغريب أنه كان بين وقت وآخر يصاب بنوبات لا حصر لها من الندم الكئيب, وكان هناك شيء ما يشعر بشأنه دائمًا بنوع من وخز الضمير؛ حيث كان كثيرًا ما يتألم لأنه لم يطر إلى ارتفاع كبير كما كان يطيب له أن يكون, في تلك اللحظات كان ينتابه ما يشبه الغم, خصوصًا حينما كانت تؤلمه بواسيره, عندئذٍ يعتبر حياته وجودًا ضائعًا, ويكف (في السر) عن الاعتداد بموهبته البرلمانية مسميًّا نفسه «المتحدث» وصاحب القول النفاذ, فإنه مازال أمامه متسع يظهر فيه أحسن ما لديه من قدرات, وأنه لن يكون مجرد موظف كبير بل سيكون رجل دولة, وواحدًا ممن ستظل روسيا تذكرهم طويلًا.
كل هذا يثبت أن إيفان إيليتش كان يهدف إلى أعلى المراتب, في حين يخفي قلبه – بشيء من التهيب – هذه الأحلام والأماني. وفي كلمة واحدة: كان إيفان رجلًا طيبًا, مرهف الحس كالشعراء.
بدأت تنتابه في السنوات الأخيرة, لحظات من التوتر والشك.. كان على نحو ما قابلًا للإثارة لأقل الأسباب، مستعدًا لاعتبار أقل معارضة له إهانة بالغة, ولَّدت الظروف الجديدة بروسيا في قلبه آمالًا كبيرة, أكدتها ترقيته إلى رتبة جنرال, فرفع رأسه عاليًا، وبدأ يتكلم كثيرًا وبفصاحة عن آخر الأنباء التي كان يتلقاها في تلهف وشغف ملحوظين, يتصيد فرص الكلام ويجول في أنحاء

المدينة, بل واعتبر في الأماكن التي ارتادها متحررًا ساخطًا على القديم وكان ذلك يشبع رغباته إلى حد كبير.
في هذه الأمسية بالذات, صار – بعد ثلاث أو أربع كؤوس من الشمبانيا – في حال انتشاء، واستولت عليه رغبة ملحة في أن يجعل ستيبان نيكيفوروفتش الذي لم يره منذ زمن طويل, وكان يحترمه دائمًا – بل ويخضع له– يغير من آرائه في جميع النواحي.. إذ كان لسبب ما يعتبر ستيبان رجعيًّا فهاجمه بأقصى حماس, أما «ستيبان» فلم يقم بأي محاولة للدفاع عن نفسه, فكان يبتسم ابتسامة المتصنع وكأن الموضوع مسليًّا بالنسبة له... وازداد تحمس إيفان إيليتش, وفي حرارة ما كان يتخيله مناقشة, لجأ أكثر مما ينبغي إلى الكأس وكلما شرب فإن ستيبان نيكيفوروفتش يرفع الزجاجة ويملأ له الكأس, ولسبب ما، فجأة بدا إيفان مغتاظًا من ذلك، ولا سيما أن سيميون إيفانتش شيبولنكو الذي كان يكن له «إيفان» كثيرًا من الازدراء, ويخشى سخريته وسوء طباعه قد لجأ إلى الصمت المقرون بالابتسام، وأخذ إيفان يحدث نفسه: «يبدو أنهم يعتبرونني مجرد طفل كبير».
واسترسل متحمسًا يقول: «لا.. هذا هو الوقت.. هذه هي اللحظة الحاسمة. لقد تركنا الأمور تسير مدة أطول مما ينبغي. وفي رأيي أن الإنسانية أهم شيء. الإنسانية للمرؤوسين, إنهم بشر مثلنا, الإنسانية ستنقذ كل شيء.. وتصلح كل شيء..»
صدرت من جانب سيميون إيفانيتش ضحكة استهزاء.. واعترض ستيبان نيكفيوروفتش على هذا بابتسامة مهذبة قائلًا: «ولكن علام توبخنا بهذه القسوة؟ اعترف يا إيفان إيليتش, إني لا أستطيع أن أراك تثني على الإنسانية... هذا يعني حب الواحد للآخرين, أليس كذلك؟»
«حسنا, نعم, حب الواحد للآخرين إن شئت.. أنا .....»
دقيقة واحدة.. ليست المسألة ذلك وحده, فحب الواحد للآخرين محل ثناء دائمًا ولكن الإصلاح لن يقتصر على هذا.. لقد ظهرت مشكلات تتعلق بالفلاحين, وبالقانون والاقتصاد والأخلاق و.. و.. مسائل متعددة أخرى تضافرت كلها في وقت واحد ومرة واحدة. قد تؤدي إلى تقلبات مثيرة. وهذا ما يقلقنا – وليس مجرد الإنسانية...»
علق سيميون إيفانيتش: «نعم, سيدي, المسألة أعمق من ذلك.»
فقال إيفان إيليتش في تهكم خشن لا تدعو إليه الضرورة: إني أفهم ذلك جيدًا. واسمح لي أن أشير – يا سيميون إيفانيتش – إلى أني لا أستسلم لإرادتك العميقة وسأجترئ إلى الدرجة التي أخبرك فيها يا ستيبان نيكيفوروفتش أنك لا تفهمني تمامًا.
«أنا لا أفهمك..!!»
«ومع ذلك, فإني أتبع وأقتفي بإصرار أثر الفكرة الإنسانية، لا سيما الإنسانية مع المرؤوسين من الموظف إلى الكاتب, ومن الكاتب إلى البواب, ومن

الخادم إلى الفلاح: وسوف تكون الإنسانية – كما كانت – حجر الأساس للإصلاحات القادمة, ولتجديد كل قديم، أنا إنساني, إذن فأنا محبوب ومن ثم فأنا موثوق بي. ومن ثَم يؤمن بي الآخرون.. وإذا آمن الناس بي فسيؤمنون بالإصلاح, سيفهمون, سوف يسود بينهم التعاطف والمودة, وسوف يقررون كل شيء بطريقة أخوية, علام تضحك يا سيميون إيفانيتش؟ ألست واضحًا؟»
رفع ستيبان نيكيفوروفتش حاجبيه صامتًا, شديد الدهشة.
وعلق سيميون إيفانيتش على ذلك بتهكم «أخشى أن أكون قد أسرفت قليلًا في الشراب, ولذلك تراني بطيء الإدراك نوعًا – إنها غيبوبة وقتية ولا شك.»
فصُدم إيفان إيليتش تمامًا.
وبعد تفكير قصير تابع ستيبان نيكيفوروفتش قائلًا: «لن نستطيع أن نستمر..»
فسأل إيفان إيليتش, وقد دهش من ملحوظة ستيبان القصيرة غير المتوقعة «ماذا تعني بقولك لن نستطيع أن نستمر..؟»
«فقط لن نستطيع أن نستمر..» وكان واضحًا أنه لم تكن لستيبان أية رغبة بالدخول في تفسيرات.
فرد إيفان إيليتش بظل من سخرية «يبدو أنك لا تفكر في خمر جديدة وزجاجات جديدة؟ أتفكر؟» لا يا سيدي, دعني لأجيب عن نفسي.
وعندئذ, دقت الساعة الحادية عشرة والنصف.
فقال سيميون إيفانيتش « لابد أن مضيفنا يحسب أننا لن نغادر أبدًا» قال ذلك وهو يهم بالقيام من كرسيه, ولكن إيفان إيليتش سبقه قائمًا, وأخذ قبعته المصنوعة من الفراء من فوق رف المدفأة, وكان يبدو عليه بعض الضيق.
وفي البهو, لف إيفان معطفه الفرو الخفيف حول جسمه, ونزل كل منهما درج السلم.
قال إيفان إيليتش للصامت سيميون إيفانيتش: «يبدو أن الزميل العجوز قد تضايق أكثر مما ينبغي»
فأجاب الثاني ببرود وهدوء: «لا, ماذا يجعلك تظن ذلك؟» ومضيا خارجين إلى الباب الخارجي.
واقتربت زحافة «سيميون», يجرها حصان رمادي، وصرخ «إيفان»؛ إذ لم ير عربته في أي مكان «يا للشيطان.. أي شيء على الأرض قد فعله تريفون بعربتي؟»
نظر هنا وهناك, ولكن عربته لم تكن موجودة, ولم يكن بواب ستيبان نيكيفوروفتش يعلم عنها شيئًا, فسألوا فارلام, سائق سيميون, الذي أخبرهم أن سائق إيفان إيليتش وعربته كانا هنا طوال الوقت, ثم لم يعودا على الإطلاق.
فقال السيد شيبولينكو «في غاية النحس.. هل يمكن أن آخذك معي؟»
صاح السيد برالنسكي هائجًا: «يا لهؤلاء الخدم الأنذال.! لقد كان السائق قد طلب السماح له بالذهاب إلى عرس هناك في حي من أحياء بيترسبورج..

خليلة له تتزوج, عليها اللعنة.. لقد منعتُه بشدة من الذهاب, والآن أنا مستعد لأن أراهن إنه قد ذهب إلى هناك.»
فقال فارلام «فعلًا, هو ذلك.. لقد ذهب, ووَعد أن يعود خلال دقيقة, قال أنه سيكون هنا في الوقت الذي ستخرجون فيه»
«انظر.. لقد كنت واثقًا من ذلك.. سأريه جزاءه..»
«بل الأحسم من ذلك أن ترسلوه إلى مركز البوليس ليتلقى «علقة» طيبة.. وعندئذ سيعمل ما يؤمر به» قال سيميون إيفانيتش ذلك وهو يغطي نفسه ببطانية العربة.
«أرجوك ألا تتعب نفسك, يا سيميون إيفانيتش.»
«يمكنني أن آخذك معي»
«وداعاً.. وشكرًا»
ذهب «سيميون» بعربته, ومضى إيفان إيليتش على الرصيف الخشبي متوتر الأعصاب تمامًا.
سأعطيك جزاءك أيها الوغد, سأذهب على قدمي إمعانًا في إغاظتك لأجعلك تحس بخطورة التصرف.. لأرعبك..
سوف يعود السائق ليكتشف أن سيده ذهب على قدميه.. لم يستسلم «إيفان إيليتش» من قبل إلى مثل هذا الغضب, لقد كان ثائرًا لدرجة كبيرة.
لم يكن مدمنًا, كانت تكفي خمس كؤوس أو ست لتؤثر فيه على الفور.. لقد كانت ليلة جميلة, ثلجية, نادرة السكون هادئة الرياح.. كانت السماء صافية مملوءة بالنجوم، والقمر المكتمل يفيض على الأرض ببريق فضي ساكن, وكان كل شيء بالخارج لطيفًا بحيث كاد «إيفان إيليتش» بعد الخمسين خطوة الأولى أن ينسى مشكلته. استولى عليه شعور من الرضا غير العادي, وحينما يكون الناس في حال سكر خفيف لا يثبتون على حال، لقد وجد «إيفان» بعض الفتنة في المنازل الخشبية القديمة القائمة على جانبي الشارع المهجور.
قال لنفسه: حسنا، مهما كان الأمر لقد سرت على قدمي, سوف يكون الدرس قاسيًّا لتريفون على الرغم من أن السير متعة بالنسبة إلي – يجب أن أسير أكثر-. لابد أني سأجد عربة في ميدان البولشوي.. ما أجمل هذه الليلة! انظر إلى كل هذه البيوت الصغيرة. هنا يسكن البسطاء والكتبة وربما التجار.. يا لهذا الرجل (ستيبان نيكيفوروفتش) ولأمثاله، يا لهم جميعًا من رجعيين! يا لهؤلاء الشيوخ المتزمتين. المتزمتين حقًا... ومع هذا فهو لا يخلو من ذكاء... إنه يملك ذلك الإدراك العملي المتزن للأمور. ولكن تبًا لأولئك الشيوخ, إنهم يفتقرون إلى ما يفتقرون إليه... إنه لم يفهمني تمامًا.. كيف يمكن لأي شخص أن يفهمك؟ المهم أني مقتنع.. مقتنع بعمق الإنسانية.. حب الآخرين, سوف أرجع إلى الناس ذواتهم الضائعة وأحيّ كرامتهم المفقودة.. ومضى يتخيل حديثًا مع العامة. من أنت؟ الجواب: كذا, أتشتغل؟ نعم أشتغل, أتريد أن تكون

سعيدًا؟ أريد, ماذا تطلبه حتى تكون سعيدًا؟ هذا وذاك, لماذا؟ لأن... سوف يفهمني الرجل من بضع كلمات.. سوف يصبح في يدي.. وبهذا يقع الرجل في الشرك, وعندئذ يمكنني أن أفعل به ما أريد, لمصلحته هو.. وإني أمقت ذلك الـ»سيميون إيفانيتش» – بملامحه الحيوانية. لقد كان هو الذي ضحك من كل شدقيه عندما ذكرت التعاطف والمودة والأخوة والإنسانية.. ما الذي يضيره..؟ إذا قابلت فلاحًا سأقف إليه وأتحدث, لقد كنت منتشيًّا لم أستطع التعبير عن نفسي بدقة, وربما لا أستطيع أن أعبر عن نفسي بالضبط, كذلك لن أقحم نفسي في شيء مرة أخرى.. قد تتحدث اليوم بحرية وفي اليوم التالي تتمنى لو لم تفعل. إنهم حفنة من الأنذال, كل واحد منهم..
هكذا كان «إيفان إيليتش» يحدث نفسه في عبارات مفككة، وهو يمضي في خطوة فوق الرصيف.. كان للهواء النقي تأثير منعش عليه. خمس دقائق أخرى كان يمكن أن تمضي ليهدأ تمامًا ويشعر بميل إلى النوم, ولكن فجأة وعلى بعد خطوات قليلة من ميدان البولشوي, سمع صوت موسيقى. فتلفت حوله.. على الجانب الآخر من الشارع, في بيت خشبي متداع للغاية, ذي طابق واحد ولكنه مرتفع – كانت هناك أصوات مرح وآلات موسيقى تعزف أنغامًا عذبة. وأمام النوافذ كان ثمة جمهور صغير, أغلبه من النساء في ملابس بالية, يلبسن المناديل فوق رؤوسهن, كان واضحًا أن الذين في الداخل يتمتعون بوقت طيب. وكان دبيب أقدام الراقصين يُسمع من الجانب المقابل من الطريق, ولحظ «إيفان» شرطيًّا غير بعيد فاتجه إليه.
سأله: «بيت من هذا, يا أخي؟» وهو يفتح معطفه النفيس بدرجة تكفي أن يرى الشرطي الطاقم المهم المصطف على صدره..
فأجاب الشرطي, وهو يقف فورًا, إذ لاحظ إشارة الامتياز «بيت الموظف بسلدونيموف كاتب سجلات»
«بسلدومينوف, ها.. بسلدومينوف.. ماذا هناك؟ أهذا عرسه؟»
«نعم, يا صاحب السعادة, إنه يتزوج ابنة مليكوبيتاييف الذي يعمل في خدمة المجلس البلدي, والبيت بيت العروس»
«آه, إذن البيت ملك بسلدومينوف الآن, وليس لمليكوبيتاييف»
«لبسلدومينوف, يا صاحب السعادة. لقد ظل لمليكوبيتاييف والآن هو لبسلدومينوف»
«إني أسألك يا أخي, لأني رئيسه, أنا جنرال في المكتب الذي يعمل فيه بسلدومينوف»
«حسن جدًا, يا صاحب السعادة», وانتصب الشرطي معتدلًا, ولكن يبدو أن إيفان إيليتش كان قد استغرق مرة أخرى في التفكير.
نعم كان بسلدومينوف من موظفي إدارته.. في مكتبه نفسه, كان موظفًا تافهًا براتب شهري عشرة روبلات تقريبًا. شغل السيد برالنسكي منصبه منذ فترة وجيزة, وهو ذو أنف معقوف, وشعر أصفر أشعث, كان نحيلًا سيئ

التغذية, رث الثياب, قال في نفسه: «ألا يصح أن تخصص للفقير البائس ورقة من ذات العشرة روبلات ليوم الأجازة، يشتري بها ما يأكله؟ لقد كانت دهشة إيفان إيليتش عظيمة حينما جاء بسلدومينوف, منذ أسبوع ليطلب منه الإذن بالزواج, وتذكر إيفان أنه لم يكن لديه وقت لينظر في الأمر, وأن مسألة الزواج هذه قد بُت فيها بسرعة خيالية. ومع ذلك تذكر بوضوح تام أن بسلدومينوف كان سيحصل على بيت خشبي وأربعمائة روبل مهرًا من زوجته, إنه يوم من أسعد أيام حياته.. الآن هو يسلي ضيوفه, يقيم حفلة, متواضعة, قصيرة, ولكنها بهيجة, مرحة, كريمة, حسن.. والآن؟ لو أتيح له أن يعلم أني, في هذه اللحظة نفسها, أنا, رئيسه ومديره, أقف خارج بيته, أستمع إلى موسيقاه – فماذا عساه أن يفعل؟ وماذا يمكن أن يفعل لو أني مضيت إلى الداخل؟

في البداية, سوف يذهل.. قد أقف في طريقه, قد أقلب كل شيء.. إنه سوف يتفاجأ.. نعم, كان يمكن أن يحدث ذلك لو أن أي جنرال آخر يدخل ولكن ليس أنا.. هو ذا بالضبط – أي شخص آخر_ ولكن ليس أنا.

حسن يا ستيبان نيكيفوروفتش, أنت لم تفهمني, أترى هناك مثالًا لك؟ إني على استعداد!

نعم! نحن دائمًا نهتف بالإنسانية, ولكننا عاجزون عن القيام بدور البطولة, عن المخاطرات الحق, ما أعني بالبطولة؟ ببساطة الآتي باعتبار العلاقات الحالية بين كل أعضاء المجتمع, فإنه بالنسبة لي, أنا, أن أذهب – بعد منتصف الليل إلى زواج مرؤوسي, كاتب سجلات, بعشرة روبلات شهريًّا, طبعًا سيكون ذلك نوعًا من الجنون والتناقض, لا أحد يفهم هذا.. ستيبان نيكيفوروفتش لن يفهم هذا إلى يوم يموت. لماذا قال: لن نستطيع أن نستمر.. أما أنا فسوف أستطيع أن أستمر.. حسن إذن سأفعل.. سأدخل. سوف يُدهشون, سوف يتوقف الرقص, سوف يحملقون فيّ, سوف يتراجعون خطوة.. حسن جدًا, وهنا أمضي مباشرة إلى بسلدومينوف المأخوذ بابتسامة متلطفة وأقول, في أبسط لغة ممكنة: كنت أزور صاحب السعادة ستيبان نيكيفوروفتش, فهو يسكن قريبًا جدًا من هذا المكان.. وربما تعرف ذلك, حسن.

لقد كنت أبحث عن تريفوتي, كنت أمر بالمكان وأستمع لصوت الموسيقى, وأسأل الشرطي, فأعلم، يا أخي أنك تتزوج.. وأفكر في نفسي, لم لا أدخل بيت مرؤوسي وأرى كيف يمرح كَتبتي وكيف يتزوجون.. إنك لن تطردني على ما أظن؟ أظن أنه سوف يجبن للمفاجأة, سوف يندفع ليجلسني على كرسي, سوف يرتعد من الإعجاب, وسوف يعجز أول الأمر, عن أن يُلم بكل شيء..

«الآن ماذا يمكن أن يكون ألطف وأجمل من مثل هذا التصرف! من أجل ماذا أتيت؟ ذلك سؤال آخر! إنه الجانب الأخلاقي للموضوع. حسن, إنهم سيجلسونني مع أهم الضيوف, أتقدم إلى العروس وأجاملها وأحيّ الضيوف وأرجوهم ألا يخجلوا, وأن يمرحوا, وأن يستمروا في الرقص, أسكت,

وأضحك.. وباختصار, أكون كريمًا ولطيفًا. أنا دائمًا كريم ولطيف حينما أكون مسرورًا من نفسي. ولكني لاأزال ثملًا بعض الشيء.. لست بسكران بالطبع.
«سوف أعاملهم كأنداد, لا أتطلب بأية حال معاملة خاصة. سوف أكون أخلاقيًّا.. سوف يفهمون ويقدرون.. سأبقى حوالي نصف ساعة – قل ساعة. وسأغادر المكان قبيل العشاء, سوف يتوسلون إلي, ينحنون إلى الأرض, ولكني سأشرب كأسًا واحدة.. أهنئهم وأرفض أن أتناول العشاء. سأقول لدي عمل, وفي التو سوف يبدو على وجوههم الاحترام. سأبتسم, بل ربما أضحك, وعندئذ سيتهلل وجه كل منهم بِشرًا. أداعب العروس مرة ثانية.. أنا أعرف ما سوف أقول, سأقول أني سأحضر مرة أخرى بعد تسعة أشهر. لاشك أنها ستلد بإنتظام, سيتكاثرون كالأرانب, سيضحكون جميعًا, وتحمر العروس خجلًا.. أقبلها على جبينها بلطف, وأمنحها بركتي.. وغدًا في الصباح أكون شديدًا كعادتي, وعندئذ يدرك كل واحد منهم أي الرجال أكون.. سوف يقولون: «إنه شديد كرئيس, أما كإنسان فهو ملك.»
هكذا سوف يقولون. وهكذا أكون قد أحرزت انتصارًا.. أنا أبوهم, وهم أولادي.. الآن, انظر, يا صاحب السعادة «ستيبان نيكيفوروفتش» هل كنت تستطيع أن تفعل شيئًا كهذا؟.
«أتدرك؟ أتفهم؟ سوف يخبر بسلدومينوف أبناءه أن الجنرال نفسه كان ملاطفًا, كيف أنه قد شرب بالفعل نخب زواج أبيهم.. وأولئك الأبناء سيخبرون أبناءهم الذين سيخبرون الحفدة كيف أن موظفًا كبيرًا ورجل دولة (وفي ذلك الوقت, سوف أكون كلا الرجلين) قد شرف أباهم.. سوف أرده إلى نفسه... إنه يتقاضى عشرة روبلات شهريا ولا أكثر.. فإذا ما ضاعفت ذلك خمس مرات أو عشر مرات, أو شيئًا من هذا القبيل كسبت إذن شعبية عامة.. تفرض نفسها على قلوب الجميع, ولا أحد يعلم ماذا يأتي من ورائها, من وراء تلك الشعبية؟.
هكذا, كان إيفان إيليتش يحدث نفسه.. كل ذلك برق برأسه في أقل من دقيقة.
فخطا من على الرصيف ومشي بثبات عبر الشارع إلى بيت مرؤوسه كاتب السجلات بسلدومينوف.
ثم اخترق بجرأة شديدة مدفوعًا بطالعه المنحوس البوابة الصغيرة، ورفس بقدمه كلبًا صغيرًا غزير الشعر كان في طريقه ينبح نباحًا خشنًا. وسار فوق الممر الخشبي إلى رواق موصد, برز في الفناء ككشك للحراسة, ثم ارتقى ثلاث درجات متآكلة إلى المدخل الصغير. وهناك في مكان بركن من الأركان كانت تحترق بقية شمعة, ولكن هذا لم يمنع «إيفان إيليتش» من أن يمضي لتغوص قدمه اليسرى إلى آخرها في كومة من اللحم كانت مطروحة في الخارج لتبرد. وقد أخذ للحظة بمنظر جبلي للحم فاسد, وللحظة قصيرة مر

برأسه خاطر: ألا يكون من الأفضل أن أتراجع فورًا؟ ولكنه قرر في نفسه أن هذا سوف يكون الجبن بعينه..
وأسرع يمسح قدمه ليمحو ما عِلِق بها. وتحسس طريقه إلى الباب المغطى باللّباد, وفتحه, فوجد نفسه في بهو صغير, نصفه كان مكدسًا تمامًا بالمعاطف والعباءات, والشيلان والقبعات. وفي النصف الآخر اصطف الموسيقيون _وكلهم أربعة_, جمعوهم من عرض الشارع. كان أربعتهم يجلسون أمام منضدة خشبية, فوقها شمعة منفردة مشعلة, يعزفون مقطعًا راقصًا. ومن خلال الباب المفتوح على الحجرة التالية كان يمكن رؤية الراقصين في ضباب كثيف من دخان الطباق والسجائر.. كان هناك نوع من المرح المحموم, صرخات وضحكات نسائية عالية. وكان الرجال يدبون كفرقة خيَّالة. وتعالت فوق هذه الضوضاء الجهنمية – أوامر أستاذ الحفلات, الذي بدا في غاية الحرية والراحة يأمر السيدات الجالسات في الوسط بالاعتدال.. وتخفف إيفان إيليتش من معطفه في شيء من الارتباك ودخل الحجرة. ولم يعد يشغله التفكير في شيء.
في البداية لم يلحظه أحد, فالكل كان منهمكًا في الرقصة الرباعية حتى آخرها, ووقف هو هناك كما لو كان مذهولًا, ولم يستطع أن يتبين شيئًا في الزحام, وتطاير طرف كوفية كانت ترتديها سيدة, فاحتك بطرف أنف إيفان إيليتش: واندفع خلفها طالب طب, فاصطدم في شدة بإيفان، وصاحت واحدة: يا بسلدي العزيز! في صوت مجلجل بطريقة غير عادية, وشعر «إيفان» أن قدميه قد التصقتا بالأرض – وكان واضحًا أنها لابد قد لمعت بالشمع, كان هناك قرابة الثلاثين ضيفًا في الحجرة, التي لم تكن حجرة صغيرة على كل حال.
وبعد دقيقة واحدة انتهت الرباعية, وما كان قد تخيله إيفان إيليتش وهو خارج البيت, أخذ يتحقق، وحدث بعد ذلك في أركان المكان همس غريب, انتشر بين المدعوين والراقصين, ولم يكد هؤلاء يستردون أنفاسهم, ويمسحون العرق عن وجوههم حتى استدارت بسرعة كل العيون والوجوه نحو الضيف القادم الجديد: وفي اللحظة التالية, تراجع الكل بعيدًا يشدون ملابس الذين لم يلحظوه بعد ويدعون إلى النظام, فكانوا يلتفتون معهم ثم يتراجعون فورًا مع الباقين.
أما إيفان فكان لا يزال واقفًا عند الباب, دون أن يتقدم خطوة, وفجأة خطا نحو الضيف غير المنتظر شاب في زي رسمي أسود, ذو شعر أصفر وأنف معقوف, وتقدم بكتفيه محنيتين إلى الأمام, وكان شاخصًا تمامًا ككلب يَشْخص نحو سيده حينما يُدعى ليضرب.
قال إيفان إيليتش:» كيف حالك يا بسلدومينوف – أتعرفني؟» وشعر فورًا أنه قد ارتكب بسؤاله حماقة, بل لعله شعر كذلك أنه قد ارتكب أكبر خطيئة..
همس بسلدومينوف:» صـ صـ صاحب السعادة!»
«أه – ها! لقد جئت إليك بمحض المصادفة يا أخي, كما تستطيع أن تدرك..»

كان واضحًا أن بسلدونيموف لم يكن في حال تمكنه من أن يدرك شيئًا على الإطلاق, وقف هناك, وعيناه تفضحان ارتباكه.
واسترسل إيفان إيليتش: حسنا, أظن أنك لن تطردني – وسواء أرغبت في ذلك أم لم ترغب.. فاستقبل ضيفك.. وحاول دون جدوى أن يبتسم, لكن بسلدونيموف – لم يفق من نوبة شلله واستمر يحملق في غباء تام.
وشعر «إيفان» أنه لو سمح للأمور أن تستمر على هذا النحو فسوف يسوء الموقف برمته.
قال إيفان: «أرجو ألا أكون متطفلًا, ربما كان من الأفضل أن أذهب!»
ولكن بسلدونيموف كان قد استرد حواسه.
فهمس, وهو ينحني بسرعة: «إنه يا صاحب السعادة لشرف كبير , أن تتفضل بالجلوس؟» وتحرك – وقد أفاق من ذهوله في النهاية – مشيرًا بكلتا يديه إلى الأريكة.
وشعر إيفان إيليتش ببعض الراحة, فغاص في الأريكة, وتلفت حوله يلاحظ أنه الوحيد الجالس, وأن كل الآخرين حتى السيدات, كانوا وقوفًا, كان الضيوف لا يزالون يتراجعون, والوحيد الواقف بجانبه وهو نصف المقوس بسلدونيموف, الذي كان لايزال عاجزًا عن فهم شيء, لا يبتسم إطلاقًا. وباختصار, كان الموقف رهيبًا للغاية.. وكان إيفان يحتمل في تلك اللحظة ألما موجعًا أحس معه أن جولته المثالية المشبعة بروح هارون الرشيد كان يمكن اعتبارها بحق نوعًا من المخاطرة. وفجأة, ظهر إلى جانب بسلدونيموف هيكل صغير شرع ينحني.. تعرف عليه إيفان– في سرور لا يوصف – لا, بل في نشوة – هو رئيس مكتبه أكيم بتروفتش زوبيكوف, وهو رجل لم يتعرف على حياته خارج العمل. كان يعرف عنه أنه موظف ذو كفاءة وكتوم.
وقف «إيفان» على الفور ومد يده إلى أكيم– كل يده لا مجرد أصبعين, فتناول الآخر اليد في كلتا يديه تعبيرًا عن الاحترام العميق، وكان ذلك أول إنقاذ للموقف.. حيث لم يعد بسلدونيموف الشخص الثاني وإنما الثالث.. كان في استطاعة إيفان أن يروي حكايته مباشرة إلى رئيس المكتب, متخذًا إياه صاحبًا للضرورة, تاركًا بسلدونيموف يمسك لسانه ويرتعش من فرط الاحترام, أما الحكاية فيجب أن تروى.. هكذا شعر إيفان إيليتش.
لقد كان في إمكانه أن يتّبين أن كل واحد يتوقع أن يعرف شيئًا, حتى الخدم كانوا يتزاحمون عند البابين يكاد بعضهم يتسلق أكتاف البعض الآخر, ليروا ويسمعوا.. كان سيئًا جدًا أن يظل رئيس المكتب لبلادة إدراكه, واقفًا.
فنطق إيفان إيليتش فجأة:» لماذا لا...» مشيرًا في ارتباك إلى مكان بجانبه على الأريكة.
«لا بل سأجلس هنا» وجلس أكيم بتروفتش بسرعة على كرسي مجاور.
وبدأ «إيفان» حديثه:» تخيل, الآن!» متوجهاً بحديثه إلى أكيم بتروفتش في صوت يبدو فيه الارتياح..

«تخيل, الآن, لقد جئت توًا من عند «ستيبان نيكيفوروفتش نيكيفوروف», المستشار الخاص وربما تكون قد سمعت عنه...»
أحنى «أكيم بتروفتش» كل جسمه إلى الأمام احترامًا، كما لو كان يقول: ومن لم يسمع عنه؟
واستطرد إيفان إيليتش يقول: «إنه جارك الآن» موجهًا كلامه إلى بسلدونيموف من باب اللياقة. ولكنه عاد فاستدار عنه بسرعة وقد قرأ في عيني بسلدونيموف عدم الانتباه.
«كان الزميل العجوز (ستيبان), كما تعلم, يحلم طول حياته بشراء منزل... وهكذا اشترى واحدًا. وهو بيت صغير لطيف. وصادف أن اليوم عيد ميلاده, ولم يكن قد احتفل به من قبل، بل كان يخفيه عنا.. كان ينكره من الشح.. ولكنه كان في هذه المرة سعيدًا جدًا ببيته الجديد لدرجة أنه دعاني و»سيميون إيفانتش شيبولنكو» – أتعرفه؟»
وانحنى أكيم بتروفتش مرة أخرى للأمام, فتهلل «إيفان» قليلًا..
«حسن, كنا هناك ثلاثتنا, والشمبانيا على المائدة, نتحدث في كل أنواع المشكلات, لقد دخلنا في نوع من المناقشة.»
رفع أكيم بتروفتش حاجبيه في احترام.
«ولكن ليست هذه هي النقطة.. لقد استأذنت منه في النهاية, لأن الزميل العجوز مواظب جدًا على عادته, إنه ينام مبكرًا – كما تعلم – في سنه المتقدمة هذه.. وفي الخارج أخذت أبحث عن سائقي «تريفوني» أين مضى بالعربة..؟ لقد كان يؤمل أن أتأخر في الداخل, لقد ذهب إلى زفاف رفيقة أو أخت له.. الله وحده يعلم من؟ في مكان ما هنا في ناحية بيترسبورج..» ومرة أخرى نظر الجنرال ناحية بسلدونيموف من باب اللياقة, فارتعش هذا أمام نظرته, وما هكذا أراد الجنرال النظر إليه.
«تخيل موقفي.. لا شيء ينفع – فلأذهب على قدمي حتى ميدان البولشوي, وهناك سأجد عربة أستأجرها.
ثم أسير.. الليلة جميلة, هادئة.. وفجأة أسمع موسيقى, ووقع أقدام أناس يرقصون... واتجه إلى الشرطي أسأله فإذا هو زواج بسلدونيموف.
ففكرت في نفسي: لم لا أذهب فأرى مرؤوسي, لا أظنه سوف يطردني شاء أو لم يشأ, إنه لا بد سيستقبل الضيف! يجب أن تعذرني, يا أخي, إذا كنت عقبة, سأذهب.. لقد ألقيت نظرة..»
وسرت بالتدريج حركة بين الضيوف.
اتخذ أكيم بتروفتش هيئة التأثر الشديد كما لو كان يقول: «كيف يمكن أن تكون عقبة يا صاحب السعادة؟ وتحرك الضيوف كلهم وأخذوا يظهرون بوادر الارتياح، وأخذت النساء كلهن تقريبًا في الجلوس، وكانت تلك علامة حسنة, ولوحت ذوات النفوس الجريئة منهن بمناديلهن. وفي الواقع لم يكن أحد

يشعر بالخجل ولكنهم جميعًا كانوا مرتبكين, وأغلبهم كان يبطن داخله شعورًا بعداء خفي لهذا الشخص الذي اندفع بينهم ليفسد لهوهم.
واستفسر إيفان إيليتش من بسلدونيموف:» اسمح لي أن أسـألك عن اسمك واسم عائلتك.»
فأجاب وعيناه تجحظان، تخرج كلماته كما لو كان يجيب نداء جاويش:»برفيري بتروفتش, يا صاحب السعادة.».
«ألا تقدمني لزوجتك الصغيرة, يا برفيري بتروفتش؟ خذني إليها.
وكاد يهم بالوقوف, ولكن بسلدونيموف اندفع إلى حجرة الاستقبال، وكانت العروس واقفة في فتحة الباب, ولكنها توارت بمجرد سماع اسمها وبعد لحظة كان بسلدونيموف يقودها من يدها, وأخذ الحاضرون يفسحون لها الطريق. ونهض إيفان إيليتش بوقار متوجهًا نحوها بابتسامة مرحبًا..
فقال وهو يميل رأسه في أرستقراطية: «سعيد جدًا أن أراك وخصوصًا في يوم كهذا.»
وابتسم في عظمة, وانفعلت السيدات سرورًا.
كانت العروس مناسبة لبسلدونيموف, سيدة صغيرة نحيفة, لا تتجاوز السابعة عشرة, شاحبة, ذات وجه دقيق وأنف حاد صغير. أما عيناها الصغيرتان المتحركتان بسرعة من جانب إلى جانب, فلم تنم عن أقل أقل ارتباك, بل على العكس.. لا بد أن بسلدونيموف قد اختارها من أجل نظراتها.. كانت ترتدي رداء أبيض من الموسلين فوق قميص قرنفلي لها رقبة كالخيط, وجسم طائر, وعظام بارزة. لم تستطع أن تقول كلمة واحدة ردًا على تحية الجنرال.
واستطرد الجنرال يقول:» حقًا إنها حسناء فعلًا!» قال ذلك بصوت مكتوم, كما لو كان يحدث بسلدونيموف وحده، ولكنه مرتفع بدرجة تكفي أن تسمعه العروس, إلا أن بسلدونيموف لم يعقب على ذلك بكلمة ولم ينحن هذه المرة, وأمكن إيفان إيليتش أن يلحظ شيئًا بذاته في عيني هذا الرجل, ما جاء من أجله إيفان إيليتش على أية حال.
«يا لهما من زوجين»
والتفت «إيفان» ثانية إلى العروس, وقد جلست بجانبه الآن على الأريكة دون أن يحصل على رد للسؤالين أو الثلاثة التي ألقاها إليها إلا بكلمة نعم أو لا وحـتى هذه لم تكن واضحة تمامًا.
فقال في نفسه: «لو أنها فقط كانت تبدو خجلة لأمكنني إذن أن أبدأ في المزاح, أما والحال هكذا, فإن الموقف عصيب» وبدا أكيم بتروفتش كما لو كان الأمر يغيظه, فظل ساكتًا.
وتوجه الجنرال بصوت مرتفع إلى الحاضرين جميعًا:»أيها السادة أرجو ألا أكون قد أفسدت متعتكم» وشعر براحتي يديه تتعرقان بغزارة.
فأجاب الضابط: لا لا يقلقنك ذلك يا صاحب السعادة, سنبدأ من جديد في ظرف دقيقة فقط, نحن فقط.. نستريح. لم يكن الضابط عجوزًا, وكان يرتدي

زيه الرسمي, أما «بسلدونيموف» فكان لا يزال واقفًا هناك, محنيا إلى الأمام، يستمع وينظر, كتابع ينتظر انتهاء سيده من كلمات الوداع.. وبدأ «إيفان» يفقد رأسه, ويشعر بارتباك, وبارتباك مؤلم, كما لو كانت الأرض تنزلق من تحت قدميه, كمن دخل مكانًا من المستحيل أن ينتزع نفسه منه, وعليه أن يتلمس طريقه في الظلام.
وفجأة أفسح الجميع الطريق لسيدة سمينة, تميل إلى القِصر, جاوزت سن الشباب, ترتدي ملابس بعيدة عن مظاهر التأنق, ولكنها في أحسن حال، تلبس شالًا كبيرًا مشبوكًا بدبوس عند عنقها, وفوق رأسها قبعة كان ظاهرًا أنها لم تكن قد اعتادت على استخدامها, كانت تحمل صينية صغيرة مستديرة, عليها زجاجة شمبانيا وكأسان بالعدد – لا أكثر ولا أقل – وكان واضحًا أن الزجاجة مخصصة لضيفين اثنين.
اتجهت السيدة الكبيرة إلى الجنرال مباشرة.
قالت, وهي تنحني: «عفوًا يا صاحب السعادة.. ما دمت قد تنزلت فشرفت ابني بحضورك زواجه, فلا ترفض أن تشرب في صحة الزوجين السعيدين.»
كانت السيدة بالنسبة لـ»إيفان إيليتش» بمثابة المنقذة, لم تكن بحال عجوزًا؛ إذ لم تتعد الخامسة والأربعين أو السادسة والأربعين من العمر, ولكنها كانت ذات وجه مستدير سمح متورد, وابتسامة ظريفة, انحنت بطريقة ساذجة وكاد إيفان إيليتش يتهلل سرورًا, فقال وهو ينهض واقفًا: «إذن فأنتِ والدة العروس؟» وهمهم بسلدونيموف: الوالدة, يا صاحب السعادة. وهو يمط رقبته مبرزًا أنفه مرة أخرى.
«إني سعيد جدا بمعرفتك, سعيد جدًا.»
«تناول شيئًا, يا صاحب السعادة.»
«بكل سرور»
ووضعت الصينية, واندفع بسلدونيموف يفرغ الخمر. وتناول إيفان إيليتش كأسًا ولم يزل واقفًا.
«إنني سعيد للغاية, سعيد للغاية بهذه الفرصة.. أرجو لك يا سيدتي (ملتفتًا إلى العروس) وأنت يا صديقي برفيري, أرجو لكما معًا حياة سعيدة.»
وابتلع ما في الكأس، وكانت هي سابع ما شرب في تلك الليلة, ونظر «بسلدونيموف» أمامه في حزن. وبدأ الجنرال يحس بالكراهية نحوه.
وقال وهو ينظر نحو الضابط: «وهذا الزميل الأهيف, ما الذي يمنعه من أن يهتف مرحبًا أو شيئًا من هذا القبيل..؟ إذن لبدا كل شيء وهو جميل.
وأضافت المرأة الكبيرة مستديرة إلى رئيس المكتب: «أفلا تشرب في صحتهما أيضًا يا أكيم بتروفتش؟ أنت رئيسه, وهو مرؤوسك لعلك تلقي بالًا إلى ولدي: أرجوك كأم, وفي المستقبل, لا تنسنا يا عزيزي أكيم بتروفتش, أنت رجل طيب.»

قال إيفان إيليتش: « ما أروع هؤلاء الروسيات المسنات, لقد أدخلت السرور على الجميع.»
عندئذ حملت صينية أخرى إلى المنضدة, أحضرتها فتاة في رداء جديد مطبوع, كانت الصينية ضخمة للغاية من الصعب أن تحيطها بذراعيها, عليها عدد لا يحصى من أطباق التفاح والحلوى, وهلام الفاكهة والجوز. كانت الصينية حتى تلك اللحظة مستقرة في حجرة الاستقبال من أجل كل الضيوف وبالأخص السيدات منهن, ولكنها الآن وضعت أمام الجنرال وحده.
قالت السيدة الكبيرة, وهي تنحني: «أرجو ألا تحقر يا صاحب السعادة تسليتنا المتواضعة.»
فقال إيفان إيليتش: «أعطني». وأخذ ينتقي حبة من الجوز كسرها بين أصابعه, وكان قد استقر رأيه على أن يكون ديمقراطيًّا حتى النهاية.
وفجأة ضحكت العروس بصوت عال.
وقال إيفان إيليتش والابتسامة على وجهه: «حسنا, سيدتي؟»
قالت العروس مخفضة عينيها: «هذا إيفان كوستنكنتش يا سيدي, يقول النكات المضحكة.»
وكان الجنرال قد لاحظ فعلًا وجود فتى مقبول الشكل, قابعًا خلف الأريكة يهمس إلى مدام بسلدونيموف, فوقف الشاب على قدميه وكان واضحًا أنه صغير السن كثير الخجل.
وتمتم في شبه اعتذار: «كنت أحدثها عن كتاب الأحلام يا صاحب السعادة.»
فسأل إيفان إيليتش شغوفًا: «وماذا يكون كتاب الأحلام؟»
هناك كتاب جديد, كتاب أدبي, كنت أقول لها, أنه إذا حلم شخص بالسيد باناييف, فذلك يعني أنه سيسكب القهوة على صدر قميصه.
فقال إيفان إيليتش مضطربًا, يا له من صريح. أما الشاب فبرغم أنه احمرّ وهو يتكلم, فإنه كان سعيدًا لأنه استطاع أن يقحم باناييف في الحديث. ورد إيفان إيليتش: «نعم, نعم لقد سمعت عنه.»
فقال صوت قريب جدًا من إيفان: «ولكن هناك كتاب أفضل هو قاموس جديد في طريقه إلى السوق, يقولون إن السيد كراييفسكي سيشترك فيه بمقال عن الفيراكي.. وعن أدب الهجاء.»
جاءت هذه الملاحظة من شاب لا يعرف الخجل بتاتًا, بل على العكس, كان يميل إلى رفع الكلفة, كان يلبس قفازًا وصديريًّا أبيض ويمسك قبعة في يده.. لم يرقص ولكنه كان يراقب ما يجري بكثير من العجرفة, إذ كان مندوبًا لمجلة الشعلة الساخرة, كان قد جاء إلى حفل الزفاف بمحض المصادفة وأكثر, فاستضافه بسلدونيموف وأكرمه، حيث كان الشابان قد صارا صديقين حميمين منذ سنة مضت, حينما كانا يعانيان الجوع معًا على نواصي الشوارع بعد ما طردتهما سيدة ألمانية كانا في خدمتها, ولم يكن لدى هذا الشاب مانع من شرب الفودكا, فشعر الجنرالِ بنفور منه في الحال.

والنكتة, يا صاحب السعادة, فجأة يدخل الفتي ذو الشعر الفاتح الذي روى القصة عن سكب القهوة, والذي كان الصحفي ذو الصديري الأبيض يرقبه بغضب وكراهية.
وانتهز الجنرال أول فرصة للهرب من الموقف, فقال: «ولكن الآن قل لي يا برفيري.. كنت أريد أن أسألك من مدة طويلة, لماذا تسمى بسلدونيموف وليس بسودونيموف؟ يجب أن يكون اسمك حتمًا بسودونيموف» فأجاب بسلدونيموف: «لا أستطيع أن أعطيك معلومات مضبوطة عن ذلك, يا صاحب السعادة»
وتدخل أكيم بتروفتش قائلًا: «حينما دخل أبوه الخدمة لأول مرة, ربما اختلطت في أوراقه, وهكذا بقي للآن يسمى (بسلدونيموف)»
فقال الجنرال بلهفة: «هو ذاك, هو ذاك طبعًا, لأن اسم بسودونيموف يشتق من الكلمة الاصطلاحية بسودونيم, وبسلدونيموف لا تعني شيئًا, كما تعلم.»
وأضاف أكيم بتروفتش: «هذا ناتج من الجهل.»
«ماذا تعني – بالضبط – بالجهل؟»
«الشعب الروسي يحرف الكلمات أحيانًا بسبب الجهل, وأحيانًا ينطقها على طريقته الخاصة. يقلب بعض الحروف بحروف أخرى أو يغير ترتيب بعض الحروف في الكلمات.»
«نعم, هو ذاك»
وهمس بسلدونيموف لمندوب المجلة: «ماذا تفعل, أنت هنا؟»
فرد عليه هامسًا: «أتكلم, ألا يمكن أن أتكلم؟» ولكنه أمسك لسانه, ومضى خارجًا من الحجرة في غضب دفين.
اتجه مباشرة إلى الحجرة الخلفية حيث الفودكا والسمك المملح والكافيار المحفوظ وزجاجة من الشيري القوي.. كانت قد وضعت من أجل الراقصين عند بداية الحفل فوق مائدة صغيرة مغطاة بمفرش مشغول.. أخذ يسكب لنفسه بعض الفودكا بنقمة دفينة في قلبه, حينما اندفع إلى الداخل طالب الطب ذو الشعر المهوش, وكان أحسن راقص في حلبة بسلدونيموف, يجيد الكونكان في الوقت نفسه وقد أمسك الزجاجة بشغف..
وقال وهو يسكب الشراب لنفسه. بسرعة: إنهم على وشك البدء تعال وانظر, سأقوم بنمرة منفردة, وبعد العشاء سأجازف وأؤدي رقصة السمكة, إنها في الواقع ملائمة جدًا للزفاف.
لم يكن لإيفان إيليتش من يكرهه ويشعر نحوه بالكراهية مثل مندوب «الشعلة» وعلى الأخص, بعد كأس أو اثنتين من الفودكا.
وبرغم ما حسبه إيفان إيليتش شرحًا مضبوطًا بل مفصلًا عن حضوره إلى الزفاف– فإن هذا الشرح في الحقيقة لم يرح أحدًا, فظل الضيوف على ارتباكهم, ولكن فجأة تغير كل شيء تغير, كما لو كان ذلك بسحر ساحر.. هدأت نفوس الجميع وغدوا مستعدين للمرح والضحك والصراخ والرقص,

وكأن الضيف الدخيل لا وجود له على الإطلاق, لقد تهامس الحاضرون «إن الضيف كان في الحقيقة ثملًا بعض الشيء...» بالتدريج نال تصديقًا حتى أن الجميع أصغوا تمامًا عندئذ وأحسوا بشعور غير عادي من الحرية.. وفي تلك اللحظة, بدأت الرباعية, آخر رقصة قبل العشاء, تلك الرقصة التي كان طالب الطب قلقًا جدًا من أجل الاشتراك فيها.

وما كاد إيفان إيليتش يثبت عزمه على أن يتحدث إلى العروس ثانية معتزمًا هذه المرة أن يهزمها بتورية مناسبة, حتى اندفع الضابط الطويل نحوها وركع على ركبة واحدة, فقفزت في الحال فوق الأريكة وطارت بعيدة عنه لتأخذ مكانها في صفوف الرباعية. ولم يحاول الضابط أن يعتذر. أما هي فلم تكلف نفسها مجرد إلقاء نظرة على الجنرال – وفي الواقع, بدت مرتاحة لأنها أزاحته عنها..

قال إيفان إيليتش لنفسه: «مهما يكن من شيء فهي تجيد استغلال حقوقها، ولا يمكن أن تتوقع أن تكون لديهم أخلاق.»

وقال متحولًا بكلامه إلى بسلدونيموف: «لا ترتبط معي هنا بالرسميات يا برفيري.. ربما يكون لديك شيء آخر يهمك.. فلا تهتم بي كثيرًا؛ إذ لم إيفان إيليتش قادرًا على احتمال رقبة بسلدونيموف الطويلة، والطريقة التي كانت بها عيناه مثبتتين في تركيز عليه..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

وبدأت الرباعية..
واستأذن أكيم بتروفتش, ممسكًا الزجاجة في يديه, يستعد لسكبها في كأس صاحب السعادة: اسمح لي, يا صاحب السعادة.
أنا, أنا في الواقع لا أدري إذا...
ولكن أكيم كان يسكب الشمبانيا بالفعل.. في حال تنم عن الانتشاء والسعادة.
وبعد أن ملأ له الكأس، أفرغ بعضًا لنفسه. وهو يرتجف ويتلوى وقد شعر – وهو يجلس إلى جانب رئيسه المباشر – أنه أشبه ما يكون بامرأة لا تجد شيئًا تتحدث فيه.. وكان ظاهرًا أن من واجبه الترفيه عن صاحب السعادة, ما دام قد نال شرف رفقته. فقدمت له الشمبانيا ذريعة لذلك, فضلًا عن أن صاحب السعادة كان يجب أن يُفرغ الخمر له, ليس من أجل الشمبانيا – التي كانت فاترة, وبالطبع, كريهة وإنما ببساطة من أجل الرضا الخُلُقي.
قال إيفان إيليتش في نفسه: «إن هذا العجوز لا يريد أن يشرب ما لم أفعل أنا.. لن أقف في طريقه، إلى جانب أنه سيكون من غير اللائق ألا أشرب والزجاجة قائمة بيننا..»
قال هذا ثم رشف رشفة.. بدا ذلك أفضل من الجلوس دون أن يفعل شيئًا.
أخذ يقول وهو يتمهل ويتكئ على كلماته: أنا هنا, أنا هنا. يمكن أن تقول, بالمصادفة.. وبالطبع قد يعتبر البعض.. أنه يمكن أن يقول أنه ليس مناسبًا أن أكون حاضرًا في مثل هذا الاجتماع.
ولم يقل أكيم بتروفتش شيئًا, فقط كان يستمع بشغف متهيب.
«ولكنني آمل أن تفهم لماذا أنا هنا؟ لم يكن في الواقع لأشرب فما جئت من أجل ذلك, أنت تعلم..»
واسترسل «إيفان», مغتاظًا من غباء أكيم يقول: «أنا هنا – يمكن أن تقول: لأشجع من أجل الأخلاق.. لتحقيق أهداف.» وفجأة سكت هو نفسه, بعد أن لاحظ أن أكيم بتروفتش التعس كان يخفض عينيه كأنما يشعر بالإثم.. وأسرع الجنرال – مضطربًا بعض الشيء – فأخذ رشفة أخرى من كأسه, وإذا بأكيم بتروفتش يمسك الزجاجة – كما لو كان خلاصه من الموقف يتوقف على هذا – ويملأ الكأس.
وتأمل «إيفان» شخص «أكيم» التعس. وشعر الأخير بنظرة الجنرال الثابتة بكثير من الحرج وصمم ألا يقول كلمة أخرى وألا يرفع عينيه.. وجلسا هكذا, وجهًا لوجه دقيقتين أخريين, كانتا دقيقتين معذبتين بالنسبة لأكيم بتروفتش.
كان أكيم بتروفتش وديعًا كالحمل, ورجلًا من المدرسة القديمة, نشأ على الخضوع، وفي الوقت نفسه صاحب عقل راجح.. روسيًّا (بيترسبورجيًا)، وُلد آباؤه وأجداده ببيترسبورج, وتلك طبقة معينة من الروس, ليس لديهم فكرة

عما يجري في روسيا, وهذا الجهل لم يسبب لهم همًا. كل مصالحهم مرتبطة ببيترسبورج, وأولًا وأخيرًا بالمكتب الذي يعملون فيه, كل مشاغلهم تتعلق بالمراهنات المالية, ومحال التجارة الصغيرة ورواتبهم الشهرية.. لا يعرفون شيئًا عن العادات والتقاليد والأغاني الروسية ما عدا (لوتشينوشكا), لأن عازفي البيانو لا الجوالين يعزفونها في الطريق العام.
وفي هذه الأثناء غرق إيفان إيليتش في دوامة من الأفكار. وفي شروده ظل يتناول رشفات من كأسه طوال الوقت, ولا يكاد يلحظ أنه يفعل ذلك.. وظل أكيم بتروفتش يملأ له الكأس بحماس دون أن يتكلم, وبدأ إيفان إيليتش يرقب الرقص الذي جذب انتباهه فجأة. وكانت هناك حادثة معينة أدهشته تمامًا.
بدأ الرقص يكون همجيًّا, فقد صمم الراقصون على الاندماج فيه إلى حد الهوس. ورقص الرجال والنساء في حماس بالغ. وكان إيفان إيليتش – الذي أثرت فيه الخمر – على وشك أن يبتسم, حينما بدأ شك مرير يغزو روحه بالتدريج, لقد كان يريدهم أن يكونوا على طبيعتهم, وأن يحسوا بالراحة. كان يهفو إلى هذا الجو من الألفة والراحة عندما كانوا يتراجعون بعيدًا عنه, ولكن الآن بدأت هذه الألفة تتخطى كل الحدود..
هذه السيدة ذات الرداء المخمل الأزرق المستهلك هي كليوباترا سيميونوفنا, التي يمكن للمرء أن يجازف بأي شيء معها([1]). أما طالب الطب, فيمكن الاكتفاء بالقول أنه كان (فوكين)([2]).
ولكن ماذا كان يعني هذا كله؟ في البداية يتراجعون, ثم فجأة يصيرون على طبيعتهم. فالانتقال كان فجائيًّا. وبدا أنهم قد نسوا وجود إيفان إيليتش.. وبالطبع كان هو أول من ضحك وأول من غامر بالتصفيق. وضحك معه أكيم بتروفتش ملء شدقيه..
وشعر إيفان إيليتش أنه مضطر لأن يقول للطالب, (أحسنت), أنت ترقص جيدًا أيها الشاب.
واستدار الطالب نحوه بحدة, وقلص ملامحه, مقربًا وجهه بوقاحة من صاحب السعادة, وصاح كالديك بأعلى صوته «إن هذا أكثر من اللازم.»
فنهض إيفان إيليتش من أمام المنضدة، وأعقب ذلك طلقات لا تتوقف من الضحك, وكان الصياح طبيعيًّا جدًا.
كان «إيفان» لا يزال واقفًا عندما جاء بسلدونيموف ينحني له يدعوه إلى مائدة العشاء. وجاءت خلفه أمه.
قالت الأم وهي تنحني: «سيدي العزيز – صاحب السعادة, شرفنا ولا تزدري طعامنا.»
فبدأ إيفان إيليتش: «أنا – أنا في الواقع لا أدري, ليس من أجل هذا أتيت, كنت الآن فقط أفكر في الانصراف.»

وكان قد أمسك بقبعته بالفعل, عازمًا على الرحيل، - فلا شيء يحمله على البقاء- لكنه بقى, وفي لحظة كان يقود الموكب إلى المائدة, وتقدمه بسلدونيموف وأمه فأفسحا له الطريق, فجلس في أفضل مكان, ومرة أخرى وضعت زجاجة شمبانيا مفتوحة بجانب طبقه, كانت على المائدة مأكولات خفيفة وأسماك صغيرة وفودكا. مد «إيفان» يده, وأفرغ لنفسه كأسًا كبيرة من الفودكا وشربها حتى آخرها. لم يكن معتادًا شرب الفودكا, شعر كأنما يتدحرج من فوق تل, وأدرك أنه يجب أن يتوقف، وأن يتشبث بشيء, ولكن لا يعرف كيف!.
كان موقفه يزداد حرجًا. وفي الحقيقة كان هناك في قرارة نفسه شيء يستهزئ به ففي ساعة واحدة يعلم الله ماذا حدث له. عندما دخل البيت كان يفتح ذراعيه لكل الناس ولجميع مرؤوسيه، ولم تكد تمر الساعة حتى اضطر للاعتراف - بقلب محزون - أنه يمقت بسلدونيموف ويلعنه هو وزوجته وحفل زفافه. ولم يكن هذا كل شيء, فلقد كان يستطيع أن يتبين من وجه بسلدونيموف ومن عينيه وحدهما أنه لا يقل عنه مقتًا, لقد كانت عيناه تكاد أن تعلنا: «إلى الجحيم, عليك اللعنة.. ألا تستطيع أن تنزاح عني؟» كل هذا قرأه إيفان إيليتش منذ لحظات في نظرات بسلدونيموف.
كان «إيفان» يؤمن بنوع من التوازن الخلقي. وكان قلبه يوجعه, كان يتشوق إلى الحرية, والهواء, والراحة النفسية, لقد كان إيفان إيليتش رجلًا طيبًا إلى حد بعيد.
كان يعلم جيدًا أنه كان يجب أن يغادر المكان منذ مدة طويلة, ليس فقط أن يغادر, بل أن يهرب ناجيًا بروحه؛ لأن الأمور لا تسير على النحو الذي كان يحلم به منذ وقت قصير، وهو في الشارع قبل أن يدلف إلى بيت بسلدونيموف.
سأل نفسه وهو يأخذ قضمة من السمكة: «من أجل ماذا أتيت؟»
وتحولت أفكاره وجهةً ساخرة, وتحرك في داخله تهكم عميق على كل ما تكلفه ثمنًا لمخاطرته هذه, بل أنه بدأ يعجب مما جاء من أجله.
«كيف كان لي أن أذهب؟ أأذهب دون أن أنتهي من المسألة إلى آخرها؟ كان خليقًا بي أن أكون سخيفًا, ماذا كانوا سيقولون عني؟ كانوا حتمًا سيقولون أني كنت أزور أماكن غير لائقة, هذا ما كان يمكن أن يظن لو أني لم أنته من الحفل حتى آخره. ماذا كان سيقول «ستيبان نيكيفوروفتش» و»سيميون إيفانيتش» وكل أولئك الذين يعملون معي في المكتب؟»
يجب ألا أغادر على نحو يُفهم منه كل شخص لماذا جئت. يجب أن أجعل الغرض الأخلاقي واضحًا. ولكن الإلهام لم يأته قط واسترسل «إنهم لا يحترمونني. علام يضحكون؟ إنهم مسترسلون. على سجيتهم جامدون. نعم, لطالما لمحت في الجيل الناشئ مثل هذا الجمود علي أن أبقى بأي ثمن, لقد انتهوا من رقصتهم، والآن ها هم أولاء اجتمعوا جميعًا حول المائدة. يمكنني أن أتحدث عن الإصلاحات. عن عظمة روسيا. سأستحوذ عليهم تمامًا. سأفعل. إن

الفرصة لم تضع بعد, ربما, كيف سأشرع؟ كيف أستحوذ عليهم؟ أي منهج علي اتخاذه؟ إنني حائر, حائر تمامًا, ماذا يريدون, وماذا يتطلبون؟ أراهم يضحكون هناك عاليًا... ماذا أريد أنا هنا؟ لماذا لا أذهب؟ إلى ماذا أريد أن أصل؟ ومع هذه الأفكار, كان ثمة شيء كالخزي, الخزي العميق الذي لا يطاق يحز في قلبه بشدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

ولكن, كل شيء أخذ مجراه، كل واحد وراء الآخر.
فبعد دقيقتين بالضبط من جلوسه إلى المائدة, تقمصت كيانه كله فكرة مخيفة, فقد تحقق فجأة من أنه سَكر حتى النهاية, وليس كما كان يظن من قبل. وإنما هو سكران بلا أمل... وكان السبب في ذلك كأس الفودكا وراء الشمبانيا.. أحس بكيانه يسقط إلى آخر مراتب الضعف, وجاءته فجأة لحظة من لحظات الشجاعة الهولندية, فصرخ قائلًا: «توقف, إنه خطأ جسيم.. إنه ببساطة شيء مهين».. ولم تستطع أفكاره المخمورة المتأرجحة أن تسفر عن وضع، وسرعان ما تشكلت في داخله نزعتان نابضتان بالحياة كلتاهما كانت قوية وملموسة.. إحداهما: نزعة البطولة والرغبة في الانتظار وتخطي العقبات والثقة المستميتة في أنه سيصل إلى غرضه على التو, والأخرى: عذاب عقلي مؤلم وشعور بأن شيئًا ما كان يعتصر قلبه, حيث ماذا سيقول الناس؟ كيف سينتهي الموقف؟ غدًا, ماذا يحمل الغد؟.. كان يدرك في غير وضوح – أن له أعداء بين الضيوف, وأن له خصومًا على المائدة.. ليس في ذلك شك..
كان يجلس حول المائدة ثلاثون ضيفًا منهم من كان أكثر من نصف مخمور.. أما الآخرون فسكارى, يصيحون ويتكلمون جميعًا في صوت واحد، ويقترحون أنخابًا غير لائقة, ويقذفون كرات الخبز إلى السيدات اللاتي بدورهن يرددنها في غير اكتراث. وسقط رجل من فوق كرسيه فور جلوسه, فبقي مطروحًا على الأرض طوال العشاء, ووقف آخر فوق المائدة يقترح نخبًا معينًا, جره الضابط من ذيل ردائه فنزل, كان العشاء خليطًا كاملًا من الأطباق من اللحم واللسان والبطاطس والكستليتة والبازلاء الخضراء والأوز, وكان المشروب هو البيرة والفودكا والشيري، وزجاجة الشمبانيا قائمة بجانب طبق الجنرال. كان مضطرًا أن يملأ منها كأس أكيم بتروفتش. هذا وقد خُصص نوع من الخمر الرخيص لمعظم الضيوف. وكانت المائدة المستطيلة مكونة من عدد من مجموعة من الموائد الصغيرة رصت متلاصقة. وكان الرجال والنساء يجلسون بالتبادل.. أما والدة بسلدونيموف فلم تشأ أن تجلس إلى المائدة وراحت تحدث نوعًا من الجلبة ملقية بالأوامر هنا وهناك. وفجأة ظهرت امرأة مشؤومة لم يلحظها أحد من قبل، ترتدي ثوبًا من الحرير الأحمر، فوق رأسها منديل مربوط فوق خد متورم, وقبعة عالية أنها أم العروس, دعيت إلى العشاء أخيرًا لأنها لم تكن على وئام مع والدة بسلدونيموف.
ألقت نظرة كريهة - ولا نقول نظرة متهكمة - على الجنرال, ولم تبدِ أدنى رغبة في أن تقدم إليه.. وبدأ إيفان إيليتش يتوجس. وقد كانت هناك - مثلها شخصية أخرى مريبة - كان يبدو أنهم يدبرون مؤامرة فيما بينهم ضد إيفان

إيليتش, هكذا بدا له الأمر, وكلما مرت برهة زاد اقتناعًا بما ظن.. وكان أكثرُ الجميع إثارة للريبة سيدًا ذا لحية في مظهر الفنان الموهوب, ظل يقلب بصره بين أيفان إيليتش وجاره أكيم بتروفتش ويهمس في إذن الجالس إلى جانبه, وكان طالب الطب.
لقد كان الرجل سكرانًا تمامًا, تبدو عليه علامات الريبة, كان هناك شيء لا يبشر بالخير في طالب الطب, حتى الضابط لم يكن يوثق به كذلك, ولكن أوضح علامات الكراهية كانت صادرة عن مندوب (الشعلة) الذي جلس متمددًا على مقعده بمنتهى الوقاحة, وجعل يتلفت حوله بكثير من التبجح.
أما الضيوف الآخرون فلم يلقوا بالًا كبيرًا لذلك المندوب, كان من الواضح أنهم لا يحبونه, وبدت على إيفان إيليتش ظاهرة أليمة... بدأ ينطق كلماته في غير وضوح وبكثير من الصعوبة.. وبرغم أنه كان لديه الكثير الذي يود قوله في هذه المناسبة, انعقد لسانه.. وبعد قليل راح في دوامة عميقة, وأسوأ من كل هذا أنه أخذ يضحك بغير سبب واضح, حينما لا يكون هناك شيء يبعث على الضحك.. كان هذا عقب كأس أخرى من الشمبانيا، قد ملأها «إيفان» بنفسه إلا أنه لم يرغب في شربها, ثم شربها فجأة, ولم يلبث أن شعر برغبة في البكاء... وقد أمكنه أن يدرك أنه يسقط سريعًا في قاع حساسية مرهفة.. ومرة أخرى, حركة الحب, حب الجميع, حتى بسلدونيموف.. حتى مندوب (الشعلة) وفجأة أراد أن يحتضنهم جميعًا, وأن ينسى كل شيء, وأن يكون صديقًا لكل الحاضرين.. أراد أن يفتح قلبه لهم, وأن يخبرهم بكل شيء – كيف أنه رجل كريم, لطيف, موهوب, وكيف يمكن أن يكون مفيدًا لبلاده, وكيف يمكنه أن يسلي الجنس اللطيف, وفوق ذلك, كيف أنه ذو نوايا طيبة للجميع. وأن يكشف لهم في النهاية بصراحة عن كل الدوافع التي حدت به لأن يظهر - غير مدعو - في بيت بسلدونيموف, وأن يشرب مجموعة من زجاجات الشمبانيا في هذا المكان.
«الصدق, الصدق المقدس – الصراحة فوق كل شيء, سأصل إلى قلوبهم من خلال صراحتي.. سيصدقونني, إني واثق أنهم سيصدقونني, هم الآن يرمقونني بنظرات عدائية, ولكن عندما أخبرهم بكل شيء سأهزمهم دون مقاومة.. سيملؤون كؤوسهم ويشربون في صحتي وهم يصيحون من الحماس.. أما الضابط – وأنا واثق من ذلك – فسيكسر كأسه بمهمازه. سيصيحون جميعًا.. مرحى.. مرحى.. إذا شاءوا أن يشربوا نخبي على طريقة الخيالة, فلن أعترض.. سيكون ذلك شيئًا رائعًا، على أية حال.. سأقبل العروس فوق جبينها, فهي مخلوق صغير لطيف.. وأكيم بتروفتش أيضًا رجل طيب جدًا..
أما بسلدونيموف فسوف يخطو بمرور الزمن إلى احتلال مكانه في المجتمع الراقي. إن الجيل الجديد كله تنقصه تلك الرقة الروحية, سوف أتحدث إليهم عن مهمة روسيا بين القوى الأوروبية الأخرى.. سألمس موضوع الفلاحين. نعم, و..سوف يحبونني جميعًا.»

كانت هذه الأحلام اللطيفة تمر سريعًا بخياله، وفي غمرة كل هذه الآمال الوردية بدأ اللعاب يخرج من فمه دون إرادة.. وكان أول ما أدرك ذلك، حينما لاحظ أنه لطخ خد أكيم بتروفتش بلعابه المتناثر, وأن أكيم قد أمسك عن مسح اللعاب فترة فالتقط «إيفان إيليتش» المنشفة ومسحه بنفسه.. ولكن هذا شيء بذيء للغاية, وأبعد ما يكون عن حدود الذوق العام.. ولاذ الجنرال بالصمت, والدهشة تغمره, أما «أكيم» فقد شرب كثيرًا, ولكنه لم ينفعل. وتنبه إيفان إلى أنه كان يتحدث منذ ربع ساعة إلى أكيم بتروفتش في ألذ موضوع وأن أكيم كان يبدو عليه الارتباك والخوف من شيء ما.. وبسلدونيموف الذي كان يجلس إلى جانب جاره كان ينصت وعلى وجهه تعبير كريه.
ولاحظ «إيفان» بعد أن ألقى نظرة على الضيوف أن كثيرًا منهم كانوا يشخصون إليه بأبصارهم ويضحكون.. وأغرب من كل هذا, أن ذلك لم يضايقه في شيء, بل على العكس تمامًا.. أخذ رشفة أخرى من كأسه وبدأ دون سابق إنذار يواجه الجماعة كلها.
بدأ بأعلى صوت ممكن يقول: «كنت أقول الآن, أيها السادة.. كنت أقول لأكيم بتروفتش أن روسيا.. في كلمة واحدة. وأنتم تفهمون ما أحاول أن أقول.. إنه إيماني العميق بأن روسيا الآن تمضي في طريق الإنسانية..»
وجاءت من أطراف المائدة: عبارات التهكم اللاذعة على (الإنسانية) حولها المتهكمون إلى مقاطع فارغة.. وأردفوا تهكمهم بعبارات الاستهانة والاستفزاز.. واشتعلت النار في إيفان إيليتش, وهب بسلدونيموف من مقعده ونظر إلى أعلى ثم أسفل, وسأل عمن صاح, وهز أكيم بتروفتش رأسه للضيوف خفية, وكأنه يرد الضيوف إلى الشعور بالعار عن الاستمرار فيما مضوا فيه... ورغم ملاحظة إيفان إيليتش ذلك، إلا أنه لاذ بصمت مؤلم رهيب.
وواصل كلامه فقال: «الإنسانية منذ وقت قصير.. نعم, منذ وقت قصير, كنت أحدث ستيبان نيكيفوروفتش, نعم, عن التجديد.. تجديد الأمور.»
وناداه في صوت مرتفع آت من الطرف الآخر للمائدة: «يا صاحب السعادة»
فأجاب إيفان: «خادمك» متوقفًا, محاولًا أن يرى من الذي ناداه..
فقال الصوت نفسه: «لا شيء البتة, يا صاحب السعادة, فقد انفعلت فقط.. استمر.. استمر..»
«التجديد, نعم التجديد..» فصاح الصوت مرة أخرى: «يا صاحب السعادة»
«نعم, سيدي»
«نهارك سعيد»
كان هذا كثيرًا جدًا على إيفان إيليتش؛ فقد توقف عن الكلام ليجد طالبًا صغيرًا قد لعبت به الخمر.. وقد وضح لديه أنه كان شخصية في منتهى الريبة, كان منذ فترة قد كسر كأسًا وطبقين. معلنًا أن هذا عينه هو ما يفعله في كل زفاف.. وفي اللحظة التي استدار «إيفان» نحوه كان الضابط ينصح الشاب

المشاغب في غضب وتعنيف: «علام تصيح؟ يجب أن تغادر المكان.. هذا كل ما لدي.»
فصاح الطالب الثمل مسترخيًّا إلى الوراء في كرسيه: «لم أكن أقصدك يا صاحب السعادة. أم أكن أقصدك, استمر. أنا مسرور للغاية أن أنصت لحديثك, عظيم جدًا.. عظيم جدًا..»
وهمس بسلدونيموف: «مشاكس سكران»
«يمكنني أن أرى أنه سكران»
قال الضابط: «كنت أقول له حكاية مسلية يا صاحب السعادة, عن إشاري من كتيبتنا خاطب ضابطه بهذه الطريقة نفسها.. وهو الآن يحاول أن يقلده؛ إذ كلما قال ضابطه كلامًا, صاح الإشاري: عظيم, عظيم. لقد كان جزاؤه الفصل من الخدمة.. منذ عشر سنوات.»
«من كان ذلك الإشاري؟»
«كان في كتيبتنا, يا صاحب السعادة. لقد جن بكلمة (عظيم) جربوا معه كل الإجراءات الرحيمة, ثم قبضوا عليه.. نصحه الضابط كأب, ولكنه كان يردد: «هائل, هائل».. كانوا يريدون محاكمته, ولكنهم أدركوا آخر الأمر أنه كان مجنونًا»
«إنه مجرد طالب يا سيدي, يمكن المرء أن يعامل الكروان برفق.»
قال الجنرال: «من ناحيتي, أنا مستعد لأن أعفو..»
وتفجرت طلقات جماعية عالية من الضحك من جانب الضيوف الذين حاولوا مجتهدين أن يكون سلوكهم سليمًا.. واضطرب إيفان إيليتش وصاح: «أيها السادة, أيها السادة, كنت أريد أن أقول.. إنكم لا تحبونني.. ومع ذلك فأنا أحبكم جميعًا.. بل وأحب بر – برفيري، وأنا أعلم أني أحط من قدر نفسي بقولي هذا..»
وهنا خرجت من بين شفتيه بحار كثيرة من اللعاب, لطخت مفرشي المائدة في أوضح مكان, وأسرع بسلدونيموف يمسحها بمنشفته.. فكانت هذه الربكة الأخيرة.. القاضية على إيفان..
فصرخ في يأس: «أيها السادة, هذا كثير جدًا.»
واجترأ بسلدونيموف مرة أخرى: «عندما يكون المرء سكران, يا صاحب السعادة.»
«برفيري. إني أرى أنك.. كل منكم.. نعم, أقول, آمل.. نعم إني أدعو كل واحد لأن يقول – ترى هل انخفضت في أعينكم تمامًا, أو لم أنخفض بعد حتى الآن..؟»
وترقرقت الدموع في عيني إيفان إيليتش – عفوًا يا صاحب السعادة..
_برفيري, إني أسألك _ أخبرني, إذا كنت قد جئت إلى زفافك.. أفلم يكن لدي غرض؟ كنت أريد أن أرفع.. أخلاقيًّا.. كنت أريد أن تتأثروا جميعًا إني أسالكم: «هل انحدرت في أعينكم أو لم يحدث ذلك بعد..؟»

وتبعت ذلك فترة صمت أشبه بالموت..
فسأل الجنرال: «والآن لماذا, لماذا لا يتصايحون..؟» ولكن الضيوف اكتفوا بتبادل النظرات. وبدأ أكيم بتروفتش ميتًا أكثر منه حيًا, أما بسلدونيموف - وقد أخرسه الرعب - فقد دار في رأسه مرة بعد أخرى سؤال مخيف.
«كيف المصير بعد كل هذا - غدًا؟»
وفجأة استدار مندوب (الشعلة) – وقد لعبت برأسه الخمر وتملكه الصمت الكئيب – نحو إيفان إيليتش مباشرة وكأنما أخذ على عاتقه أن يجيب عن سؤال الجنرال, فصاح في صوت كالرعد: «نعم, نعم, لقد انحدرت بنفسك. نعم أنت رجعي.. رجعي بالتأكيد..»
فصاح إيفان إيليتش بغضب, وقد قفز من مكانه: «لقد نسيت نفسك, أيها الفتى, أتعرف مع من تتكلم..؟»
.. «إليك أنت.. لست بفتى.. لقد أتيت هنا لتبحث عن شعبية, لا أكثر»
فصاح إيفان: «بسلدونيموف - ما معنى هذا؟»
ولكن بسلدونيموف نهض على قدميه مرعوبًا لا يعرف ماذا يفعل, وبدا الضيوف جميعًا كأنهم قد جمدوا في مقاعدهم, وصاح الفنان والطالب في صوت واحد: «برافو.. برافو..»
واستمر مندوب (الشعلة) يصيح في غضب لا يُكبح: «نعم, جئت هنا لتباهي بإنسانيتك.. لقد عكرت صفو الجماعة.. شربت الشمبانيا دون أن تفكر أنها غالية جدًا بالنسبة لكاتب يتقاضى عشرة روبلات شهريًّا.. بل إني لأرتاب في أنك واحد من أولئك الرؤساء الذين يستظرفون زوجات مرؤوسيهم الصغيرات.»
فصاح إيفان إيليتش. وهو يمد يده نحو بسلدونيموف: «بسلدونيموف, بسلدونيموف» فقد كانت كل كلمة من المندوب كسكين غرس في قلبه..
فصرخ بسلدونيموف: «انتظر دقيقة يا صاحب السعادة, أرجو ألا تحزن» وهرع إلى المندوب وأمسكه من ياقة ردائه بعنف وجذبه بعيدًا عن المائدة.. ولم يكن أحد يتوقع مثل هذه القوة الجسدية من بسلدونيموف النحيل, ولكن المندوب كان قد أعياه السكر, ولكمه بسلدونيموف على ظهره مرة أو مرتين دافعًا به خارج الحجرة.
وصاح المندوب آنذاك: «كل واحد منكم كذلك.. سأشرحكم جميعًا غدًا في الشعلة»
ونهض الجميع وقوفًا
وتجمهر بسلدونيموف وأمه وبعض الضيوف حول الجنرال صائحين: «صاحب السعادة.. صاحب السعادة.. لا تشغل بالك يا صاحب السعادة..»
فصاح الجنرال: «لا, لا, لقد تحطمت.. أتيت.. أتيت إلى هنا, يمكن أن تقول.. لأبارك الزواج.. وهذا كل ما جنيت..» وغاص في كرسيه كما لو كان مغشيًّا عليه.. سقطت يداه على المائدة, ومال برأسه عليها, فوق طبق من

الفالوذج.. فساد المكان هلع من الصعب وصفه, وبعد دقيقة, قام مترنحًا, كان الواضح أنه يرغب في الرحيل - وتعثرت قدمه في رجل كرسي, فسقط منبطحًا على الأرض, وراح في غيبوبة ممتزجة بالشخير, وكان هذا متوقعًا من شخص لم يعتد تعاطي الشراب, ثم شرب حتى الثمالة, فمِثل هؤلاء يحتفظون بوعيهم حتى آخر لحظة, وفجأة يسقطون كجذع شجرة.. ورقد إيفان إيليتش على الأرض فترة فاقد الوعي تمامًا.. وشد بسلدونيموف شعره ووقف متحجرًا في مكانه.
وبدأ الضيوف يتفرقون مهرولين, كل يفسر الواقعة على طريقته الخاصة, وكانت الساعة قد قاربت الثالثة صباحًا...
والواقع أن ظروف بسلدونيموف كانت أسوأ بكثير مما قد يظن, وقد تحرج موقفه وبدا بؤسه الشديد..
منذ شهر فقط قبل زواجه, كان بسلدونيموف في غاية الانهيار.. فقد جاء من مقاطعة كان أبوه يشغل فيها وظيفة, ثم مات أثناء محاكمته على أحد المخالفات، وحينما حصل بسلدونيموف على وظيفة بعشرة روبلات في الشهر. قبل زفافه بخمسة أشهر, شعر أنه قد دبت فيه الحياة من جديد.. إلا أن الظروف جعلته ينحدر مرة ثانية وبسرعة فائقة.. كان هناك اثنان فقط من عائلة بسلدونيموف قد بقيا على قيد الحياة, هو وأمه التي تركت موطنها الأول عقب موت زوجها.. وقد عانت الأم والابن معًا كثيرًا من الجوع والبرد القارص, فكانا يعيشان على موارد مريبة للغاية, وحينما عثر أخيرًا على وظيفة فكر هو وأمه في ركن يأويهما.. اشتغلت أمه غاسلة ثياب, وظل هو يقتصد مدة أربعة أشهر ليشتري حذاء ومعطفًا.. كان رئيسه كثيرًا ما يسأله متى كانت آخر مرة ذهب فيها إلى بيت الاستحمام؟ وتواترت شائعات عن البق الذي عشش تحت ياقة معطفه.. ولكن بسلدونيموف يمتاز بكثير من قوة الإرادة, كان يبدو وديعًا هادئًا, كان تعليمه أقل ما يمكن ولم يكن أحد يسمعه يبدي رأيًا.. ولست تدري أكان يفكر أو يدبر خططًا أو يحتفظ في صدره بآمال من أي نوع.. وعلى أية حال فقد تشكل في داخله نوع من التصميم الصامد غير الواعي, على أن ينتزع نفسه من وضعه الذي لا يُحسد عليه ويضع قدميه على الطريق.
أما روحه فقد كانت مثابرة حريصة, كان يمكنك أن تلحظ من نظرة واحدة أنه سوف يشق طريقه, سيوفر أسباب الحياة لنفسه, بل وربما استطاع أن يقتصد شيئًا, لا أحد في العالم كان يحبه سوى أمه التي أحبته بلا تحفظ.. كانت هي الأخرى ذات عزيمة, صورة تمتاز بالسماحة, كان يمكن أن يستمرا في سكنى ذلك الركن خمس أو ست سنوات ينتظران شيئًا, لو لم يصادفا «مليكوبيتاييف» وهو موظف سابق خدم في الأقاليم, واستقر أخيرًا مع أسرته في بيترسبورج, كان يعرف بسلدونيموف, وكان ذا قليل من المال.. ولم يكن أحد يعرف أن له بنتين فكر أن يزوج إحداهما بسلدونيموف.. «إني أعرفه, لقد كان أبوه رجلًا طيبًا، ولا بد أنه الآن سيكون طيبًا كذلك». عندما يريد

مليكوبيتاييف أن يفعل شيئًا فعل, فهو طاغية غريب الأطوار.. كان يقضي جل وقته جالسًا في كرسيه – وقد حرمه المرض استعمال رجليه, ولكنه لم يمنعه الشراب، كان يشرب ويسب أيامًا بطولها, فقد كان رجلًا قاسي القلب يلذ له أن يكون بجانبه من يعذبه بلا انقطاع؛ لهذا استبقى بعض أقاربه معه في منزله: أخته, وهي امرأة عليلة متوجعة, وأختين لزوجته وهما عصبيتان تشكوان كثيراً, وعمة عجوز انكسر لها ضلع في حادث.. واستبقى مع هؤلاء طفيلية أخرى, سيدة من أصل ألماني برعت في رواية قصص (ألف ليلة وليلة), وكانت لذته الكبرى تقوم على تعذيب أولئك الذين يعتمدون عليه.. بسببهن دائمًا ولم يكن من بينهن من تستطيع النطق في حضرته.. كان يثير المشكلات بينهن بالاختلاق والوشاية, يضحك ويسعد برؤيتهن جميعًا مشتبكات في عراك.. وقد سره إلى أقصى حد أن أتته ابنته الكبرى التي احتملت عشر سنوات من الجوع مع زوجها الضابط, أرملة تستصحب ثلاثة أطفال مرضى من الضعف – كان يكره هؤلاء الأطفال – ولكنهم أضافوا, أفرادًا إلى جماعة المنكوبين الذين لذ للرجل العجوز أن يعذبهم, الذي كان راضيًّا تمامًا.. هذه المجموعة من النسوة العصبيات والأطفال المرضى اجتمعوا في مكان - مع معذبهم الكبير - بالبيت الخشبي في ناحية من نواحي بيترسبورج, كانوا دائمًا نصف جائعين؛ وذلك لأن العجوز كان بخيلًا, ولكنه لم يبخل قط بنفقات الفودكا.. وكانوا لا يستمتعون بالنوم لأن الرجل العجوز كان يعاني من الأرق ويطلب الترفيه... في كلمة واحدة, كانوا جميعًا يقضون أتعس الأوقات ويلعنون الظروف.

وتصادف أن التقى مليكوبيتاييف بسلدونيموف, وكانت ابنته الصغرى الضعيفة البنية قليلة الحظ من الجمال، قد بلغت عندئذ السابعة عشر من عمرها, ومع أنها كانت قد انتظمت وقتًا في مدرسة ألمانية, فإنها لم تحصل على أكثر من المبادئ الأولى للتعليم. عاشت المسكينة في جحيم من الوشايات العائلية والتجسس والنميمة, يحرقها دائمًا الصديقات والأصدقاء، كانت تهفو إلى الزواج منذ زمن طويل, تبدو أمام الغرباء وديعة, ولكنها في البيت وبجوار أمها وجمهور الطفيليين نكدة حادة المزاج, تحب معاكسة أطفال أختها وضربهم, وتشي بهم إذا سرقوا سكرًا أو خبزًا... ونشأت بينها وبين أختها الكبرى معركة لا تخمد ولا تنتهي.

خطبها العجوز لبسلدونيموف. ولكن هذا لفقره المدقع، – طلب من أبيها مهلة قصيرة يفكر فيها في الموضوع.. بحث هو وأمه المسألة طويلًا، فالبيت سوف يسجل باسم هذه الابنة, وقد كان مجرد كوخ خشبي من طابق واحد متهالك, ولكنه بيت على كل حال.. وإلى جانب هذا كان لا بد من أربعمائة روبل وهو مبلغ يستلزم وقتًا طويلًا حتى يُجمع.

«أجل. ماذا تحسبون أني أجلب رجلًا إلى البيت؟» هكذا صاح الطاغية المخمور, «أولًا لأن البيت مليء بالنساء. لقد مرضت من النساء, أريد

بسلدونيموف ليرقص على أنغامي. ولآني سأكون قطعًا صاحب فضل عليه. ثانيًا, أجلبه لآنكم لا ترغبون بذلك, لأن هذا يقلب كيانكم ولا شك.. أفعل ذلك لأغيظكم.. وأنت يا برفيري. اضربها إذا ما صارت زوجتك. لقد ظلت دائمًا ومنذ مولدها تحمل في داخلها سبعة شياطين, اطردهم جميعًا ويمكنك أن تستعمل عكازي هذا.»
لم ينطق بسلدونيموف بكلمة, ولكنه حسم رأيه, وانتقل هو وأمه إلى البيت قبل الاحتفال, فاغتسلا, واكتسيا, وانتعلا وتزودا ببعض المال من أجل الزفاف، ومن الجائز أن يكون العجوز قد أحسن إليهما بشيء من المال.. وقد كان يستظرف أم بسلدونيموف, فكبح جماح نفسه ولم يعذبها. سمح العجوز بأقل مبلغ ممكن من أجل الزفاف الذي دعا إليه كل أقاربه ومعارفه, أما الضيوف الذين دعاهم بسلدونيموف فلم يكونوا أكثر من مندوب (الشعلة) وأكيم بتروفتش - ضيف الشرف في الحفل -.
كان بسلدونيموف يعلم جيدًا أن عروسه تكره مجرد رؤيته, وأنها كانت تود لو تزوجت الضابط بدلًا منه.. ولكنه احتمل وصمد وساعدته أمه على الصمود والاحتمال..
رتب العجوز للاحتفال, فخصص الغرف الخلفية للمدعوين وكدسهم فيها حتى كانوا يختنقون من الزحام, وعزل الغرف الأمامية وخصصها للرقص والعشاء, وأخيرًا حوالي الساعة الحادية عشر, عندما ذهب العجوز مخمورًا لينام, قررت أم العروس, التي كانت طوال اليوم سخيفة شاذة مع أم بسلدونيموف, أن تدع ما فات وأن تذهب إلى الحلبة وتحضر العشاء.. ولكن ظهور «إيفان إيليتش» أفسد كل شيء.. فارتبكت زوجة مليكوبيتاييف.. وتكدرت, وعنفت الجميع لأنهم لم يخبروها بأن «جنرالاً» قد وجهت إليه الدعوة, فأكدوا لها جميعًا أنه قد جاء من غير ميعاد ودون دعوة, ولكنها لم تكن لتصدق ذلك. وكان لابد إذن من شراء الشمبانيا. ولم يكن مع أم بسلدونيموف سوى روبل واحد, أما هو فلم يكن معه شيء على الإطلاق.. وكان ضروريا أن تستعطف العجوز السخيفة لتمنح بعض النقود من أجل زجاجة الشمبانيا مراعاة لعلاقات صهرها برؤسائه, تعطفا إليها كثيرًا, وأخيرًا, أعطتها بعض النقود, وشرب بسلدونيموف من أعمال المهانة, اندفع أكثر من مرة إلى الحجرة الصغيرة حيث سرير العروس يشد شعره وينكفئ فوق السرير ويجهش بالبكاء..
ولم تكن لدى إيفان إيليتش أية فكرة, كم تكلفت زجاجتا الشمبانيا اللتان شربهما ذلك المساء! ويا لبؤس بسلدونيموف, ويا لشقائه بل ويأسه, عندما انتهت المسألة كلها على ذلك النحو.
ومرة أخرى كانت هناك مشكلات أخرى, وربما استمرت طوال الليل ولولة العروس الشكاءة ودموعها.. وتأنيب أقاربها الموتورين, لقد كان رأسه مثقلًا بالصداع, وشعر بغشاوة تستقر فوق حدقتي عينيه, وها هو «إيفان إيليتش» مازال في مكانه يحتاج إلى إسعاف, وكان واجبًا أن يبحثوا عن طبيب في

الثالثة صباحًا, أو عن عربة تحمل الجنرال إلى منزله.. يجب أن تكون عربة خاصة, فشخصيته مهمة ولا يمكن أن تحمله إلى منزله في حالته تلك مجرد عربة عادية, ولكن من أين لهم بالنقود؟ وأعلنت أم العروس التي كانت ثائرة لأن الجنرال لم يخاطبها بكلمة ولم يحاول أن يحييها ولو حتى بنظرة في أثناء العشاء. أنه لم يعد معها شيء من النقود, وقد يكون ذلك صدقًا.. فمن أين إذن تأتي النقود؟ ماذا ينبغي عمله؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

نُقل «إيفان إيليتش» إلى الكنبة الجلدية الصغيرة في غرفة الطعام، واندفع بسلدونيموف هنا وهناك يحاول أن يقترض شيئًا من النقود, حتى أنه لم يتعفف عن سؤال الخدم.. ثم غامر أخيرًا فحدث أكيم بتروفتش ووقع هذا بدوره في ارتباك شديد عند ذكر النقود.
وتمتم أكيم بتروفتش: «يمكنني أن أقوم بهذا, بسرور – ولكن, الآن – أخشى أن.. أرجو أن تعذرني..
والتقط قبعته وانطلق خارجًا من البيت..
أما الشخص الوحيد الذي أثبت أنه مفيد في هذه المناسبة فقد كان ذلك الشاب الطيب القلب، الذي تكلم عن كتاب الأحلام, وحتى هذا لم يكن مفيدًا جدًا.. الذي أخذ يواسي بسلدونيموف.. وأخيرًا اجتمع بسلدونيموف وأمه والشاب وقرروا أنه بدلًا من استدعاء طبيب, يحسن أن يستحضروا عربة وينقلوا الجنرال المريض إلى المنزل, وأن يجروا له – ريثما تحضر العربة – بعض الإسعافات المنزلية, كتغطية رأسه ووجنتيه بالماء البارد, ووضع الثلج فوق رأسه.. وأخذت أم بسلدونيموف على عاتقها أن تفعل ذلك.
وأسرع الشاب يبحث عن عربة, فلما لم يجد هناك عربة في أية ناحية في تلك الساعة المتأخرة, ذهب إلى مقر سائقي الأجرة في ضواحي المدينة وأيقظهم من النوم واستصحب أحدهم بعد أن ساومه على الأجرة.. وعندما وصل الشاب إلى بيت بسلدونيموف في العربة المستأجرة وكان ذلك قبيل الساعة الرابعة صباحًا, وجد الأمور قد تغيرت تمامًا, فقد اتضح أن إيفان إيليتش – الذي ما زال فاقد الوعي – مريض جدًا يتلوى ويئن على نحو يدعو للإشفاق وإنه من الخطورة بمكان, إن لم يكن من المستحيل أن ينقل. وتساءل بسلدونيموف في رعب.. ومن يعرف ماذا تكون العاقبة؟ وماذا ينبغي فعله؟
وبرزت مشكلة أخرى؛ إذ كان لا بد من ترك المريض في بيتهم فأين يوضع؟ ففي كل البيت لم يكن ثمة سوى سريران أحدهما ينام عليه مليكوبيتاييف وزوجته, وسرير مزدوج تم شراؤه حديثًا من أجل العروسين, أما أغلب أهل البيت فكانوا ينامون على الأرض جنبًا إلى جنب – على حشايا من الريش في حالة مؤسفة.. فإذا أمكن تخصيص إحداها للجنرال كان من الممكن سحبها من تحت أحد النائمين, ولكن أين توضع؟ وعلى أي شيء؟ وكان أحسن مكان بلا شك إنما هو حجرة الجلوس البعيدة عن سكان المنزل ذات المدخل المنفصل. ولكن أين توضع الحشية؟ ليس على الكراسي, فالتلاميذ فقط هم الذين يمكن أن يناموا فوق الكراسي حينما يعودون إلى بيوتهم يومي السبت والأحد. وإذا حدث هذا فإنه يكون تصرفًا مجافيًا للاحترام بالنسبة لشخص

كـ»إيفان إيليتش», ماذا سيقول غدًا عندما يستيقظ فيجد نفسه نائمًا فوق الكراسي؟
ولم يستمع بسلدونيموف لهذا الاقتراح, وكان هناك شيء واحد فقط قد تبقى, وهو أن يضعوه في فراش العروس.. وهذا الفراش كان مقامًا في حجرة صغيرة تفتح على حجرة الطعام وعليه حشية مزدوجة اُشتريت حديثًا لم ينم عليها أحد من قبل، إضافة إلى ملاءات نظيفة وأربع مخدات وردية اللون في أكياس من الموسلين.. أما المفرش فكان من الساتان الوردي المشغول بعناية, والستائر المصنوعة من الموسلين تنساب من خلال حلقة مذهبة مدلاة فوق الرأس.. وكان الضيوف قد آووا جميعًا إلى حيث ينامون.
وبرغم كراهية العروس الشديدة لبسلدونيموف, كانت قد استرقت الخطى إلى حجرة النوم مرات متعددة خلال المساء تتأملها. وما كان أكثر حنقها وغضبها حينما علمت أن الرأي استقر على نقل رجل مريض بما يشبه الكوليرا إلى فراش عرسها!
حاولت أم العروس الوقوف إلى جانبها، وهي تسب بصوت مرتفع وتهدد بالشكوى إلى زوجها في اليوم التالي.. ولكن بسلدونيموف أظهر قوة إرادة وأصر على المضي قدمًا في التنفيذ..
ووُضع إيفان إيليتش أخيرًا في غرفة العروس, ووضعت مرتبة فوق الكراسي في مكان ما للزوجين.. وبكت العروس, ولكنها لم تجرؤ على العصيان, وأبوها يملك عكازًا تعرفه تمامًا, وكانت تعلم أكيدًا أن أباها سيطلب تقريرًا مفصلًا عن أمور معينة صبيحة اليوم التالي.. وحتى تهدأ ثائرتها – نقل المفرش الوردي والوسائد المغلفة بالموسلين إلى حجرة الجلوس, وكانت هذه هي اللحظة التي وصل فيها الشاب في العربة المستأجرة, وعندما علم بأنهم لم يعودوا في حاجة إليها تملكه الفزع, كان عليه أن يدفع أجرتها بنفسه، وهو الذي لم يحمل قط أكثر من دريهمات.. وهنا أعلن بسلدونيموف إفلاسه التام.
وجرت عدة محاولات لتهدئة السائق الذي بدأ مع ذلك يصيح ويقرع النوافذ..
كيف انتهي كل هذا, لا يمكنني أن أقول بالضبط كيف انتهى.. وعاد الشاب في العربة كرهينة إلى حيث كان يسكن أحد أصدقائه من الطلاب ليوقظه لعله يجد لديه نقودًا.
كانت الساعة قد جاوزت الرابعة صباحًا عندما ترك الجميع العروسين بمفردهما, وترك باب الحجرة مغلقًا عليهما.. وسهرت أم بسلدونيموف بجانب سرير المريض طوال الليل, رقدت فوق بساط على الأرض, وغطت جسمها بمعطفها الخفيف, ولكنها لم تتمكن من النوم, حيث كان عليها أن تسهر بقية الليل فقد أصيب «إيفان إيليتش» بنوبة عنيفة من الإسهال.. وكانت هذه العجوز من الشجاعة والحنان بحيث خلعت عنه ملابسه, وبقيت ترعاه طوال الوقت كما لو كان ابنًا لها.. ظلت تذهب وتجيء عبر الطرقة طوال الليل... ولم ينته بعد تعس تلك الليلة المشؤومة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

5

لم تكد تمر عشر دقائق منذ أغلقت الحجرة على الزوجين الصغيرين حتى سمعت صرخة عالية, لم تكن صرخة فرح, وفي لحظة – اقتحم الحجرة المظلمة جمهور من النسوة في ملابسهن الداخلية- يلهثن من الذعر.. كان هؤلاء النسوة: أم العروس, أختها الكبرى, عماتها الثلاث (من بينهن ذات الضلع المكسور) والطباخ والطفيلية الألمانية التي كانت تحكي القصص الخرافية والتي سحبت من تحتها مرتبتها الخاصة بالقوة, أحسن مرتبة في البيت والتي تتكون منها كل ثروتها وقدمت للعروسين الجديدين – كل هؤلاء جاءوا يستطلعون الأمر..

وفي تلك الأثناء, أسرع شخص بإشعال شمعة فتكشف للجميع منظر غاية في الغرابة؛ فقد تهاوت الكراسي لعجزها عن حمل ما فوقها. وكانت العروس تنتحب من شدة الغضب. ووقف بسلدونيموف وقفة المهزوم كمجرم ضبط متلبسًا, ولم يحاول أن يدافع عن نفسه.. وتوالت الزفرات والصرخات من كل جانب, وأتت أم بسلدونيموف مسرعة هي الأخرى, ولكن أم العروس سجلت هذه المرة انتصارًا حاسمًا.. بدأت تغمر بسلدونيموف بوابل من التأنيب الظالم: «أبعد ذلك، وتسمي نفسك زوجًا؟».. «أي خير يُرجى منك بعد هذه الفضيحة؟» وسحبت ابنتها من يدها وقادتها بعيدًا عن زوجها, آخذة على عاتقها مسئولية الإجابة على الأب الغضوب, عندما يطلب تقريرًا في الصباح التالي.. وتدفق الجميع خلفها يصحن ويهززن رؤوسهن, ولم يتبق مع بسلدونيموف سوى أمه التي حاولت أن تواسيه, ولكنه أبعدها عنه في الحال حيث لم تكن المواساة لتنفعه.. وذهب مترنحًا نحو الكنبة المجاورة, فجلس عليها غارقًا في تأملات كئيبة – حافي القدمين, لا يرتدي إلا الملابس الضرورية. وتلاحقت داخل عقله الأفكار متتابعة في اضطراب.. كان أحيانًا يلقي بنظرة آلية حول الحجرة, حيث كان الراقصون يحدثون ذلك الهرج الهائل منذ قليل, وجو الحجرة ما يزال معبأ بدخان السجائر. وكانت الأرض الملوثة, المبتلة – هنا وهناك – ما زالت مرصعة بأوراق «البورنبون» وأعقاب السجائر, ووقف حطام سرير العرس والكراسي المقلوبة شهودًا على وهمية الأحلام والآمال..

استمر جالسًا هكذا ما يقرب من ساعة كاملة, لا شيء يدور برأسه غير اليأس.. ماذا عليه أن يتوقع في المكتب صباح الغد؟ لأنه سيكون من المستحيل أن يبقى مع الجنرال بعدما حدث تلك الليلة, وجاء في رأسه التفكير في مليكوبيتاييف, الذي لا شك سيرغمه غدًا على أن يرقص «الكازاتشوك» مرة أخرى ليختبر ولاءه.. ثم استرسل يفكر في زوجته التي هجرته في أحرج لحظات حياته. وفي الضابط الطويل الذي ركع على ركبة واحدة أمامها.

رأى هذا جيدًا.. وفكر في الشياطين السبعة التي تسكن داخلها, برواية أبيها, وفي العكاز المعد لطردهم خارج البيت. كان يحس بمقدرته على احتمال الكثير, ذلك حق, ولكن القدر قد أعد له في هذه المحنة الأخيرة ما أرغمه على الشك في قوة ذلك الاحتمال.
هكذا كان بسلدونيموف أشد ما يكون حزنًا.. كان لهب الشمعة قد انخفض, وكان ضوؤها المترنح يسقط على صفحة من وجه بسلدونيموف وألقى وجهه ظلًا ضخمًا على الحائط: رقبة مقوسة, أنف معقوف, وخصلتان من الشعر, أحدهما ممددة فوق جبينه والأخرى على مؤخرة رأسه. وأخيرًا عندما بدأت أنوار الصباح المبكر تتسلل إلى الغرفة, نهض وهو يرتعش ذاهلًا, واتجه نحو الحشية وسط الكراسي. ودون أن يحاول أن يغير من وضع شيء, أو يطفئ الشمعة, ألقى بنفسه ونام النومة الخامدة الشبيهة بالموت, التي يعرفها المحكوم عليهم بالإعدام..

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6

وليس ثمة ما يمكن أن يقارن بليلة العذاب التي قضاها «إيفان إيليتش» على سرير عرس بسلدونيموف التعس! لم يفارقه الصداع والغثيان، وأحاسيس أخرى كريهة. لقد عانى مما يشبه عذاب جهنم في كثير.
بدأ يعي, وأضاء الوعي في رأسه أغوارًا من الرعب. حتى لقد كان من الأفضل أن يظل فاقد الوعي تمامًا.. استطاع أن يعرف أم بسلدونيموف وسمع نصائحها الحانية: «تحمل يا عزيزي, سوف تعتادها!»
ومع ذلك, وبرغم أنه عرفها فإنه لم يستطع أن يجد مبررًا منطقيًّا لوجودها بجانبه, وتمثلت أمامه صورة مقيتة, كان أكثرها مثابرة صورة سيميون إيفانتش, ولكنه بتدقيق النظر لاحظ أنها ليست صورة إيفانتش وإنما هي أنف بسلدونيموف. والرجل الفنان, والضابط. والعجوز ذات الخد المتورم. كل هؤلاء برقوا واختفوا- وأكثر ما كان يحتل تفكيره تلك الحلقة المذهبة المعلقة فوق رأسه, والتي من خلالها انسدلت الستائر. لم يستطع أن يتبيَّنها بوضوح على ضوء الشمعة الشاحب, وظل يسأل نفسه: «لأي شيء هذه الحلقة؟ لماذا هي هنا, وماذا تعني؟»
وأخيرًا، قبيل طلوع النهار توقفت هجمات الفكر فنام, نام بعمق بلا أحلام ما يقرب من ساعة. وعندما استيقظ, كان في كامل وعيه تقريبًا وبرأسه صداع لا يحتمل, وفي فمه رائحة مثيرة للغثيان على حين شعر بلسانه جافًا كخرقة من القماش.
جلس في السرير, وتلفت حوله وحاول أن يفكر.. كان ضوء الفجر يجاهد للدخول من خلال فلجات النافذة, فألقى شريطًا من نور على الحائط المقابل.. وكانت الساعة حوالي السابعة صباحًا.
وعندما تحقق إيفان إيليتش أين هو, وتذكر كل ما حدث في تلك الليلة.. والوقائع التي حدثت على مائدة العشاء, ومخاطراته البطولية الفاشلة, وخطابه الذي ألقاه. وتمثلت في عقله في لمحة خاطفة نتائج ما حدث – وما يمكن أن يُقال أو يُظن.. عندما تلفت حوله فرأى الفوضى التي أحدثها في فراش العرس الهادئ, عند ذلك كله تملك قلبه شعور قوي بالخزي والنكد فصرخ, وغطى وجهه بيديه وألقى بنفسه على الوسادة إلى الوراء في قنوط..
وبعد دقيقة قفز من فوق السرير فلمح ملابسه فوق كرسي مجاور مطوية ومرتبة بعناية فتناولها, فبدأ يرتديها – ملقيًّا بنظرات خاطفة متلصصة من وراء كتفه كما لو كان فزعًا من شيء, وعلى كرسي آخر كان معطفه وقبعته, وقفازه الجلدي داخل القبعة. حاول أن يتسلل خارجًا دون أن يلحظه أحد, ولكن الباب انفتح فجأة, ودخلت بسلدونيموفا العجوز تحمل وعاءً من الفخار وصحنًا من الصيني، وضعت الصحن وطلبت إليه في إطراء أن يغتسل.

«يجب أن تغتسل يا سيدي, يا سيدي, لا يمكنك أن تذهب دون اغتسال» وفي تلك اللحظة, تيقن إيفان أنه إذا كان هناك مخلوق واحد في العالم يمكن أن يشعر بالراحة إزاءه ولا يخشى شيئًا فهي تلك المرأة العجوز بالذات, فاغتسل. ولمدة طويلة بعد ذلك كانت تعاوده ذكريات تلك الليلة البغيضة. كان كل شيء عن استيقاظه, وعن الوعاء الفخاري والصحن الصيني المملوء بالماء البارد الذي كانت قطع الثلج مازالت طافية فيه, وقطعة الصابون البيضاوية في ورقتها الوردية والحروف المحفورة على سطحها.. والتي اُشتريت ولا شك من أجل العروسين الصغيرين, ولكن قُدر لإيفان إيليتش أن يكون أول من يستعملها.. وأنعشه الماء البارد فأفاق وجفف وجهه دون أن يقول كلمة, بل دون أن يشكر ممرضته, تناول قبعته ووضع على كتفيه المعطف الذي ناولته إياه أم بسلدونيموف, واتخذ طريقه عبر الممشى, ثم اخترق المطبخ حيث كانت القطة تموء والطباخة تغادر فراشها. تبعناه بأبصارهما باستطلاع وركب, اندفع خارجًا إلى الفناء, ثم إلى الشارع, كانت عربة ركاب مارة آنذاك, وكان نهارًا ثلجيًا, والضباب كثيفًا يغشى كل البيوت ويخيم في الأجواء, ورفع إيفان إيليتش ياقة معطفه وشعر أن كل الناس ينظرون إليه، شعر كأنما كل من في الشارع يعرفه. ويعرف ما حدث له في ليلته.

عكف «إيفان» في منزله لا يغادره, ولم يذهب إلى المكتب؛ إذ مرض مرضًا شديدًا، ولكنه كان نفسيًّا أكثر منه جسمانيًّا, وفي خلال الأيام الثمانية التالية لتلك الليلة, مر بجحيم حقيقي, مرت به لحظات عدة، فكر فيها تفكيرًا جديًّا في دخول الدير.. فكان كثير التأمل في ذلك. سمع الغناء السفلي تحت الأرض, ورأي قبرًا مفتوحًا, تصور الحياة في صومعة أو غابة أو كهف..

ولكنه كان حين يسترجع حواسه يعترف في نفسه بأن هذا كله ليس إلا من فعل الهواجس والمبالغات, وكثيرًا ما كان يخجل من ذلك, عانى «إيفان إيليتش» مرارة التفكير العميق في فكرة «الوجود الضائع» وهي فلسفة أخلاقية يبحث فيها الإنسان عن ذاته ليستعيدها نقية سليمة وذلك ما كان يحمله على كثير مما قاسى. لقد كانت للرجل فلسفة خاصة يريد لها الأتباع والأنصار. كان في مرضه يرتعد من الصور التي تمر عليه, ماذا سيقولون عنه؟ وماذا سيظنون به؟ وعندما يعود إلى المكتب: أي همسات تلك التي ستلاحقه عامًا كاملًا.. عشرة أعوام طوال حياته؟ سوف تتوارث قصته الأجيال. وفي نوبة من نوبات التوتر هذه, كان على استعداد لأن يذهب إلى سيميون إيفانتش يسأله العفو والصداقة. لم يحاول أن يلتمس المعاذير لنفسه. بل كان يعاقب نفسه دون انقطاع..

فكر في تقديم استقالته دون إبطاء؛ ليكرس نفسه لإسعاد البشرية, بمفرده ودون معاونة.. كان عليه أن يغير كل معارفه على النحو الذي يُمكنه من محو كل ذكرياته السابقة.. وعندئذ ثاب إلى نفسه وأدرك أن ذلك كله هو الهراء! وأن كل شيء يمكن إصلاحه باستخدام القسوة مع مرؤوسيه. أشد من ذي

قبل. وفي مثل تلك اللحظات كان الأمل يعاوده, فتبدأ نفسه مرة أخرى في الهدوء والصفاء.
وبعد ثمانية أيام كاملة من الشك والعذاب, شعر أنه لم يعد يحتمل ذلك، وفي صباح يوم جميل قرر أن يذهب إلى مكتبه.
وبينما كان في البيت – حزينًا مهمومًا, حاول كثيرًا أن يتخيل كيف تكون عودته إلى المكتب.. استبد به الخوف من تلك الهمسات المبهمة التي سوف تتناثر كلما مشي, ومن تلك التعبيرات الغامضة التي سوف تبدو لا محالة على وجوه موظفيه وتلك الابتسامات المملوءة بالضغائن والأحقاد – وكم كانت دهشته عندما لم يحدث شيء من كل ذلك! فقد قوبل بالاحترام, والانحناء, كان الجميع جادين, ومشغولين. فامتلأ قلبه بالفرح واتخذ طريقه إلى مكتبه الخاص.
وهناك, انهمك في العمل الجاد, واستمع إلى بضعة تقارير وإيضاحات, وأعطى التعليمات, وشعر أنه لم يفكر قط ولم يبحث قط بالحكمة والرؤية وبأسلوب عملي من قبل مثلما فعل في هذا الصباح. ورأى أنه كان مصدر رضا، وأنه مقبول من الجميع. وأنه يعامل بكل احترام.. كل شيء مضى جميلًا رائعًا..
وأخيرًا, ظهر أكيم بتروفتش ومعه بعض الأوراق. وبمجرد رؤيته أحس إيفان أيليتش بطعنة في قلبه, ولكن ذلك لم يدم أكثر من لحظة, أدى عمله بالنسبة لأكيم كما ينبغي, وكان يتحدث إليه متعاظمًا ومطيلًا للحديث, أراه ماذا عليه أن يفعل وشرح له كل شيء. ومع ذلك, فقد كان يتجنب أن تستقر عيناه طويلًا على أكيم, وكان أكيم بدوره يخشى النظر إليه.
انتهى أكيم بتروفتش من عمله مع الجنرال، وبدأ يجمع أوراقه لينصرف، ولكن كان ثمة التماس..
«كاتب السجلات بسلدونيموف يلتمس نقله إلى مصلحة أخرى.. وعدني صاحب السعادة سيميون إيفانتش شيبولنكو بوظيفة... وهو في انتظار موافقتكم الكريمة, يا صاحب السعادة»
فقال إيفان إيليتش, وهو يشعر بعبء ضخم ينزاح عن كاهله: «إذن هو يريد أن يُنقل» واتجه إلى أكيم بتروفتش فتقابلت عيونهما لحظة..
ورد أيفان إيليتش: «هذا حسن جدًا.. من ناحيتي.. سأحاول. إني راغب جدًا في ذلك»
وبدا أكيم قلقًا يريد الابتعاد بأسرع ما يمكن، ولكن أيفان إيليتش قرر – في نوبة كرم أن يعبر عن نفسه نهائياً.. ومرة أخرى جاءه الإلهام.
قال وهو يلقي نظرة حادة ذات معنى عميق على أكيم بتروفتش: «قل له.. نعم, قل له إني لا أحمل له أي ضغينة.. حقًا, لا أحمل له أية كراهية – بل على العكس فإني على استعداد تام لنسيان الماضي, لنسيان كل شيء, حقيقة كل شيء..»

ولكن إيفان إيليتش توقف فجأة, وقد لاحظ في دهشة سلوك أكيم بتروفتش الغريب, فبعد أن كان أكيم رجلًا عاقلًا وإذا به لسبب غير معلوم – يتحول إلى أحمق مذعور.. فبدلًا من الإنصات إلى «إيفان» باحترام, أحمر حمرة الأغبياء, وقام بسرعة غير لائقة بسلسلة من الانحناءات الصغيرة، وهو يتراجع في اتجاه الباب, بدا كما لو يود أن يغوص تحت الأرض أو الأعلى، أن يعود إلى مكتبه بأسرع ما يمكن. نهض إيفان إيليتش, وكان وحيدًا في الغرفة, من فوق كرسيه بادي الاضطراب, ونظر في المرآة دون أن يرى صورته.

وهمس بلا وعي: «لا - القسوة.. القسوة..!» وشاعت الحمرة في وجهه المقطب, وأحس في تلك اللحظة بخجل عميق.. أحس أنه قد صار أكثر بؤسًا مما كان في أسوأ لحظات المرض خلال تلك الأيام الثمانية.

وقال لنفسه: «لم أستطع أن أستمر([3])» وارتمى عاجزًا في كرسيه.»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن هذا الكتاب..
موضوع القصة..
1
2
3
4
5
6

Notes

[←1]

(1) () راقصة مشهورة.

(2) () راقص مشهور كان في بيترسبورج في الستينات من القرن الثامن عشر. [←2]

[←3]

تلك هي العبارة الـتي واجهه بها في بداية القصة ستيبان نيكيفوروفتش يأسًا من الإصلاح. ولم يكن الجـنرال إيفان إيليتش يائسًا أول الأمر, ولذلك فقد مضى في طريقه يحاول الإصلاح حتى صدم. فعاد مرة أخرى إلى اليأس والقنوط.